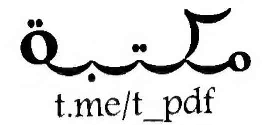
المُعقَّد

رواية غريبة .. غريبة جدا!!

م. عبد الوهاب السيد الرفاعي

نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING
الطبعة الأولى



العنوان

المعـــقَّـد

تأليف

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي

الطبعة

الأولى 2018

ردمك:

978-99966-94-72-1

رقم الإيداع: 2018/1423

تصميم وإخراج

نوڤا بلس للنشر والتوزيع

نوڤا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING
www.novapluskw.com

مكتبة | 794
سُر مَن قرأ

المعـــــقّـد

رواية غريبة .. غريبة جدا!!

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي



تنويــه

يسألني القراء باستمرار ومن دون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول:

أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها

أَنظر في المرآة..

وأعرف أن الذي أراه خصمي الوحيد..

إنه يحمل مخاوفي وكَسَلي وقلقي وأحزاني..

كم أتمنى أن أتغلب عليه!!.

المعقّد

الزمن لا قيمة له.. إنه مجرد مراحل من عمرك لا يوجد فيها ما يلفت الانتباه.. أما التاريخ فيختلف كليّة عن الزمن.. إنه اللحظات المهمة والفاصلة التي تتغير فيها حياتك.. لذا لا نعرف عادة عن العظماء سوى لحظاتهم (التاريخية) التي تحققت فيها إنجازاتهم.

ومن الرائع بالطبع أن تكون لحظاتك التاريخية إيجابية تنطلق منها لحياة أفضل.. تماما كما يحدث عند التخرج.. أو عند الحصول على منصب وظيفي يحقق لك نقلة نوعية في حياتك الخاصة.. إلا أن الأمر في حالتي لم يكن كذلك للأسف.. فأهم لحظاتي هي خروجي من السجن للتو!!!.. وبعد 8 سنوات قضيتها بين جدرانه تنفيذا لحكم قضائي صدر ضدي بسبب متاجرتي بالسموم البيضاء.. أعرف أنها مقدمة غير مشجعة لقصتي.. لكن.. هكذا هي القصص.. تتعلق دوما بنقطة مفصلية ومفترق طرق في حياة أبطالها.. ولن أجد أفضل من هذه البداية الواضحة والصريحة.

لن أتحدث كثيرا عن السنوات التي قضيتها في السجن.. إذ لا يوجد فيها ما يستحق الذكر.. وهي تختلف عن الصورة النمطية المرسومة في أذهان الناس عن السجون.. فلم تكن

هناك عصابات تحاول فرض هيمنتها على الآخرين.. ولم يكن هناك عالم سفلي يحكمه المساجين الأقوياء.. أعتقد أن طبيعة السجون عندنا في دول الخليج تختلف عن بقية دول العالم.

كل ما أستطيع قوله أنني عشت سنوات السجن منزويا منعزلا متحفظا في تعاملي مع الجميع.. وكنت باردا جافا صامتا معظم الأوقات.. وحتى حين أتحدث.. لم أكن مثل هؤلاء الذين يتحدثون قليلا بلسانهم.. وبقية حديثهم يكون بإشارات وتلويحات بأيديهم بسبب انفعالاتهم الزائدة.. فهذا يمنح الطرف الآخر الشعور بالألفة.. وسيراني حينها مجرد إنسان عادي من الممكن كسر الحواجز وكسب صداقته.. لذا ظلت كلماتي مقتضبة واضحة بسيطة دون السماح لأحد بطرح أي أسئلة شخصية.. حتى فهم الجميع أنني أريد أن أكون في حالي.

كانت سنواتي الهادئة في السجن مملة بكل تأكيد.. وهذا هو الهدف من السجون عموما.. عقاب الإنسان من خلال الملل القاتل!!.. خاصة حين يقومون بمصادرة وسيلة اتصالك الوحيدة في العالم.. هاتفك النقال.. لكن.. المال والفساد يلعبان دورهما في كل مكان.. فقد دفعت رشوة صغيرة لأحدهم كي

يشتري هاتفا ويقوم بتهريبه لي إلى داخل السجن.. لأعرف حينها فقط قيمة هذه الهدية العظيمة التي قدمها العالم لمن يعيشون في عزلة.. أتحدث عن (الانترنت)!!.. حيث قمت طوال سنوات سجني باستغلال الهاتف خير استغلال.. إذ كنت أقضي معظم الوقت في قراءة الكتب الإلكترونية.. ولا أبالغ لو قلت أنني قرأت مئات الكتب بمختلف الأنواع والأفكار.. رغم أنني لم أكن يوما من عشاق القراءة.. لكنه وقت الفراغ الشاسع الذي يجعلك تبحث عن أي شيء لتشغل نفسك به.. فكنت لا أترك هاتفي تقريبا.. سوى في أوقات النوم أو التفتيش الذي تفاجئنا به إدارة السجن بين حين وآخر.

الغريب أنني لم أكن أعد الأيام والساعات لإنهاء مدتي والحصول على حريتي كحال أي سجين آخر.. ربما لأن من يستعجل الخروج من السجن يحلم عادة ببداية جديدة.. ويكون قد دلّ طريقه ويعرف إلى أين ستتجه حياته بعد خروجه.. أما أنا.. فالخروج من السجن لم يكن يعني أي شيء بالنسبة لي وقد أصبحت في أواخر الأربعينيات من العمر وبدأت أدخل مرحلة الشيخوخة.. إذ لم أعد أملك روح

الشباب التي تدفعني للبدء من جديد.. ولم يعد هناك ما يمكن إصلاحه في حياتي.. خاصة وأن تراكمات وأخطاء الماضي لم تدع لي أي مجال للتفاؤل.. كوني عشت معظم سنوات عمري في نفق معتم.. فكلما ألتفت إلى الوراء ينقبض قلبي ويضيق صدري على اللحظات التي قضيتها داخله.. وتعود بي الذاكرة إلى الماضي.. محاولا أن أعرف بداية الخلل.. وكيف وصل بي الأمر إلى هذا المطاف!!.

المعذرة لهذه المقدمة الطويلة.. لكني الشخصية الرئيسية في هذه القصة وأسرد لكم جزءا من مذكراتي.. ولا بد من معرفة شيئا عن تفاصيل حياتي كونها الركيزة الأساسية التي ستستند إليها كل الأحداث التالية.. والتي أكاد أجزم أنها أغرب ما ستقرؤونه في حياتكم!!.

كنت أقول أنني أرجع أحيانا في ذاكرتي إلى الوراء.. لأكتشف أن الخلل بدأ في محيطي الأسري نفسه.. فقد كنت أنتمي لعائلة كبيرة قوامها 6 أولاد و 5 بنات.. ومن أبوين غير متعلمين يحملان الفكرة السائدة في جيلهم الجميل.. أن الشارع كفيل بتربية الأبناء!!.. ظنا منهم أن الشوارع آمنة كما كانت في زمنهم.. فلم تكن هناك أي رقابة من أي نوع

على حياتنا.. دعكم من أنه كلما زاد عدد أفراد الأسرة.. تفقد مفهومها الحميم بالتقارب والتآلف.. فمشاعر الأخوة لا يمكن تقسيمها على 11 شقيقا من وجهة نظري.. والأمر سيان مع مشاعر الأبوة والأمومة التي لا يمكن تقسيمها على هذا الكم الهائل من الأبناء.. حتى لتشعر أحيانا أنك تعيش طفولتك في ملجأ.. أو حظيرة بشرية!!.

ولا أنسى طبعا أبناء العمومة والأقارب الذين كانوا يملؤون البيت في طفولتي.. حين كنت أشعر بأمان دائم وأنا معهم.. فالطفل لا يرى المستقبل أبدا.. ولا يفهم إلا المتعة اللحظية التي كانت حاضرة في بيتنا طوال الوقت.. خاصة وأن دراستي في المراحل الابتدائية لم تهم أحدا من أفراد العائلة آنذاك.. فلم يكن والداي أو أحد من أشقائي يسأل عن تحصيلي العلمي.. مما جعل الحياة جميلة بنظري.. ظنا أنني سأعيش طوال العمر بهذه الطريقة.. وهذا ما جعلني أعشق التجمعات العائلية في طفولتي.. لأكبر مع مرور السنوات وأكتشف أن لا أحد في عالمي سواي!!.



ما زلت أتذكر بداية تغيير العالم من حولي لأول مرة.. وشعوري بالوحشة والقسوة حين كنت في العاشرة من العمر ربما.. عندما تعرضت لتحرش جنسي من أحد أبناء عمومتي الذي يكبرني سنا.. حيث وجد في ذلك الطفل المسكين (أنا) ما يشبع به غريزته القذرة.. لقد كان غلمانيا* حقيرا مارس معي العنف والتخويف لتحقيق رغباته الحيوانية.. مع التهديد المستمر بعقابي العسير لو أخبرت أحدا من العائلة.. وهذا ما جعلني أخشاه كثيرا وأتصور أن لا أحد في العالم قادر على إنقاذي منه.. مما جعله يكرر تحرشاته الجنسية

---

* (الغلمانية) أو (البيدوفيليا) (Paedophilia) اضطراب نفسي شهير للغاية يميل على إثره المرء لممارسة الجنس تجاه الأطفال دون الـ 12 عاما.. فيكون خلاله المتحرش إما عنيفا يقوم بتهديد الطفل وضربه وإجباره على ما يريد.. أو لطيفا يحاول استمالته بالكلام وتقديم الهدايا والمال.. وهذه المشكلة منتشرة بصورة مخيفة للأسف في عالمنا العربي في المدارس والبيوت.. فقد أظهرت الإحصائيات في إحدى الدول العربية أن واحدا من كل 4 أطفال تعرضوا للتحرش الجنسي في حياتهم!!.. بل ويرجح البعض أن النسبة تفوق ذلك بكثير لولا التكتم وطبيعة مجتمعاتنا المحافظة وخوفها من الفضيحة.. وعادة ما تؤثر تلك التحرشات كثيرا على حالة الطفل النفسية.. خاصة مع علمه أن الجاني في معظم الأحيان حر طليق لن يأخذ عقوبته التي يستحقها.. فيتأثر احترام الطفل لذاته ويصاب بنقص شديد في ثقته بنفسه.. ويبدأ الشعور بحاجة ماسة إلى العاطفة.. وربما تمتد الأمور إلى اضطرابات نفسية أكبر.. كالاكتئاب المزمن.. والحاجز النفسي تجاه المعاشرة الزوجية.. بعد أن يصبح الجنس هاجسا يذكّره دوما بما حدث له في طفولته.. وفي حالات أخرى يكون التأثير النفسي عكسيا.. إذ يشب الطفل حاقدا ناقما على المجتمع.. فيمارس القسوة على من هم أضعف منه.. وأحيانا ينجرف لممارسة أنشطة غير قانونية.

كلما أتيحت له الفرصة.. ودون خوف من العواقب.. لثقته أنني لن أتكلم.. حتى أنني اختبأت منه ذات يوم تحت السرير.. ونمت دون أن أشعر بنفسي.. ليبحث عني كل أفراد العائلة والجيران ساعات طويلة.. قبل أن أستيقظ وأخرج من مخبئي.. لأجد الجميع يحتضنني ويقبلني وأنا لا أفهم ما يحدث حولي.. كنت خائفا.. خائفا فقط.. إنني على يقين الآن أن بيئة الإنسان سبب كل أمراضه النفسية.. فلا يوجد شيء في حياة المرء أكبر من هذه المواقف الصغيرة.. والتي تظهر خلالها كل الشرور!!.

لقد أدركت بعد كل هذه السنوات معنى السعادة الحقيقية.. إنها بالنسبة لي عبارة عن أسرة صغيرة.. أب وأم والكثير من الحب والألعاب والأمان.. وقليلا من المسؤوليات.. وأن تكون أنت الطفل الذي يجلس في المقعد الخلفي للسيارة.. فتنظر إلى العالم بشغف ولهفة وتأمل محبب إلى النفس.. من دون أن تدرك أن عالمك سيسوء عندما تنتقل للمقعد الأمامي.. ليموت بعدها كل شغفك للحياة.. فالطفل الذي كان يترقب مدفع الإفطار و(القرقيعان) والتجمعات العائلية والأعياد كبر.. ولم يعد ينتظر شيئا!!.

ولم تكن التحرشات الجنسية مشكلتي الوحيدة.. بل ما تلاها في فترة المراهقة.. فبسبب انحدار تحصيلي العلمي.. فشلت في دراستي وخرجت من المدرسة.. لألتحق بعد سنوات قليلة للعمل في إحدى الجهات الحكومية.. وبراتب جيد قياسا لشاب أعزب لا يحمل على عاتقه أي مسؤوليات.. فكنت أستغل راتبي للهو والسفر مع أصدقاء السوء لممارسة كل ما يخطر بالبال من أفعال سوداء.

ولا ننسى أن كل هذا كان يحدث قبل اختراع الهواتف النقالة.. فكان طريق تواصلي مع الفتيات خلال خطوط البيت الأرضية فقط.. مما جعل أشقائي يكشفون أمري بسهولة.. لأسمع منهم باستمرار عبارات الثناء كوني شابا أعيش حياتي بطولها وعرضها.. أشقائي نفسهم الذين كانوا سيشنقون شقيقاتي لو فعلن ما فعلته في شبابي.. لكن.. هذه طبيعة مجتمعنا الذكوري وهذه طريقة تفكيره للأسف.. فلا يرون السوء بأي عمل إلا حين ترتكبه امرأة!!.

ظللت أعيش تلك الحياة العابثة حتى منتصف العشرينيات من عمري.. حين بدأت والدتي تشكو عبثي المستمر إلى أشقائي.. وإلى والدي الذي قال كلمته الشهيرة ذات يوم:

((زوجوه يعقل))!!.. وهي الجريمة التي ترتكبها بعض الأسر بحق بنات الناس.. لا أعرف كيف وافقت وخضعت لتلك الضغوط سريعا.. ربما رغبتي لإسعاد والديّ فحسب.. واعتمادا على كلامهما أن الرزق سيجد طريقه إلي بعد زواجي.. وأن أشقائي خير مثال على ذلك.. وكم كنت غبيا حين صدقت هذا الكلام من دون تفكير.. لأنني كنت أرى جميع أشقائي يعانون الصعوبات المالية ويكدحون في حياتهم وسط المصاريف التي لا تنتهي.. وكل منهم ينتظر معجزة ما.. على أمل أن تتحسن أموره بصورة أو بأخرى.. لكن هذا لا يحدث أبدا!!.

المهم أنني تزوجت من تلك الفتاة الجامعية التي لم تكن لتقبل بي لولا ضغوط أهلها وعلاقة والدها الوثيقة بوالدي.. خاصة وأن الشهادة -آنذاك- لم تكن بالأهمية التي هي عليها في هذا الزمن.. فكان حفل زفافي المرة الوحيدة التي شعرت فيها بأنني إنسان مهم بسبب الاهتمام الذي يحظى به العريسان عادة في محيطهما العائلي.. لينساني الجميع مع مرور الأيام ويتركوني أواجه العالم وحدي.. وأكتشف بطريقة صادمة أن الواقع مخالف تماما لكلام والديّ.. وأن حياتي لن تختلف عما يعيشه أشقائي.

فقد تضاعفت المصاريف بصورة مفاجئة.. وبدأت المتاعب المادية في الظهور سريعا.. لتتغير النفوس تدريجيا.. وتبدأ الخلافات والمشاكل.. وتتفاقم بعد أن أنجبنا طفلتين خلال 3 سنوات.. إذ رأيت حينها أن حياتي متجهة إلى طريق مسدود.. وأنني فقدت حتى الراحة النفسية بوجود طفلتين ملأتا الشقة إزعاجا وفوضى.. ليضيق صدري.. وأستشيط غضبا حين تحدث أبسط مشكلة.. ويصل الأمر إلى الاعتداء على زوجتي جسديا -للأسف- أكثر من مرة.. بل وضربها بِغِلِ وقسوة.. وسط صراخ وبكاء ابنتي اللتين نالتا نصيبهما من العنف وعاشتا طفولة بائسة بسببي.. فأدركت في قرارة نفسي أن معظم الناس لديهم نزعة سادية بنسب متفاوتة.. وتظهر تلك النزعة على السطح حين تكون حياتهم عبارة عن سلسلة من الهزائم!!.

لقد كنت كالزنبرك المضغوط.. كلما تتركه يضرب شيئا ما.. وبدلا من أن ألعن الظلام.. أشعلت النار في الجميع!!.. هل هناك أب لا يحب أطفاله؟!.. هناك الكثيرون.. صدقوني.. هؤلاء الذين يترحمون على أيام العزوبية ويرون في أطفالهم عبئا ثقيلا عليهم.. والمحاكم تحفل بقضايا من هذا النوع..

وبصراحة.. أشعر أن بعض الآباء بحاجة للتربية أكثر من أبنائهم!!.. وربما التحرش الجنسي الذي تعرضت له في طفولتي صنع مني شخصا يكره فكرة الأسرة من الأساس.

كنت أمر في تلك الظروف الصعبة دون علم والديّ اللذين توفيا مرتاحين في فترتين متباعدتين ظنا منهما أن حياة جميع أبنائهما متجهة إلى الاستقرار.. فقط لأنهم تزوجوا!!.. لكن رائحة الخلافات فاحت رغم كل شيء.. وأزكمت أنوف الجميع.. ليحاول أقارب زوجتي التدخل لإصلاح ما أفسدته بنفسي.. فكنت أكتفي بوعود مقتضبة أن الأمور ستتحسن وأن الحال سينصلح.. وإن كنت أرى هذا مستحيلا كوني كرهت زوجتي ورأيت أنها سبب تعاستي.. خاصة وأن فكرة الطلاق بدت مستحيلة للأسف.. بعد أن فكرت كثيرا بما سيتبعه ذلك من أعباء مادية.. ومصاريف.. ونفقة.. وكل ما سيلتهم راتبي.

وبعد سنوات.. بدأت أبحث عن المتعة اللحظية في (الكويت).. فكنت أحاول أن أمارس الجنون بالسر كي أستطيع أن أعيش الحياة بعقل!!!.. إنها القصة المعتادة التي نقرأ أو نسمع عنها باستمرار.. في البداية خيانات زوجية وعلاقات عابرة مع هذه

الفتاة أو تلك.. ثم يكبر الأمر حين تدخل عالم رفاق السوء ويبدؤون في الحديث عن الكسب السريع الذي سيغير حياتك رأسا على عقب.. لتشعر بالإغراء الشديد وأن حل مشاكلك كلها سيأتيك على طبق من ذهب لو خالفت القانون مرة واحدة ستمر بسلام على الأرجح.. كونك جديدا على الساحة وبعيدا عن الشبهات.. هذا ما يحدث دوما.. تنازلات.. وتنازلات.. إلى أن تجد أنك تحولت إلى شخص آخر!!.

كانت هذه بداية دخولي عالم المخدرات.. صفقة صغيرة تدر بضعة آلاف.. لأخرج منها بسلام فأنتعش ماديا.. وأقسم أنها المرة الأولى والأخيرة.. وأنني لن أنحدر إلى هذا المنزلق ثانية.. ثم ينفد المال وأقرر الدخول في صفقة أخرى بمخاطرة أكبر لأحصل على المزيد من المال.. وصفقة أخرى.. وأخرى!!.. لتمر الأيام والسنوات وتزيد الصفقات تدريجيا إلى أن أقبض عشرات الآلاف.. فتتحسن الحالة المادية كثيرا.. لكن تتباعد المسافة بيني وبين أسرتي بتناسب طردي.. مع غيابي شبه الدائم عنها.. و.. يقل الحذر تدريجيا أيضا.. إلى أن تم القبض علي في النهاية وبعد حوالي 6 سنوات من الاتجار بالمواد المخدرة.. لينتهي بي الأمر بالسجن الذي خرجت منه للتو

كما ذكرت في بداية قصتي.. مما يعني أنني سأظل أحمل ذلك اللقب البغيض (خريج سجون) طوال العمر.. مهما تغيرت وقررت أن أعيش حياة مستقيمة!!.

دعكم من تبعـات ما حدث بعد إلقـاء القبض علي.. فقد طلبـت زوجتـي الطلاق وحصلت عليـه بحكـم قضائي لم يستغرق وقتا طويلا.. وتبرأ مني أشقائي وأقاربي بعد أن أصبحت أمثل لهم العار.. وباتوا يعتبرونني شخصا ميتا.. بل وهذا ما قاله أحد أشقائي بنفسه حين ثبتت التهمة علي.. فرأيت كلامه واقعا طوال سنوات السجن التي لم يزرني فيها أحد.. ولا حتى ابنتيّ!!.

تدور تلك الذكريات السوداء في ذهني وأشعة الشمس الحارة تضرب وجهي.. مع الشعور بالإنهاك.. وصداع غير مفهوم جعل رأسي ثقيلا للغاية.. هل لأنني لم أركب أي سيارة منذ سنوات؟!.. لم أجد الوقت للتفكير بالإجابة على هذا السؤال.. فالأفكار كلها ذابت فجأة بعد أن سمعت صوتا يقول وبلهجة عربية من بلاد الشام:

- إننا في منطقة (القْرين) كما طلبت.. أين ستذهب الآن؟!.

فتحت عيني وقد نسيت نفسي بسبب نوبة الشرود التي مررت بها للتو.. فالتفت بسرعة لأعرف أين أنا.. وأتذكر أنني في سيارة أجرة أقلّتني من السجن منذ نصف ساعة.. تنهيدة حارة أفرغ خلالها مشاعري السلبية.. ثم أطلب من السائق أن ينحرف يسارا ويتجه إلى تلك القطعة وإلى ذلك الشارع.. وفي النهاية إلى ذلك البيت.. و:

- لقد وصلنا.. شكرا لك.

أقولها وأنا أنظر إلى تلك الفيلا التي تم تقسيمها لعدة شقق ومن ثم تأجيرها.. وألقي نظرة سريعة على شاشة هاتفي.. إنها تقترب من الواحدة ظهرا.. لا بأس.. أغمغم بكلمات الشكر التي لم يسمعها السائق نفسه.. لأنقده أجرته وأنزل من السيارة.. إنني أجد صعوبة في الوقوف بسبب الصداع.. لكني أحاول تجاهل ذلك الشعور.. ألقي نظرة أخرى على الفيلا شاعرا أنها كالقصر الذي هجره أصحابه.. ليزوره أحد أبنائه بعد سنوات كي يبكي على طفولته!!.. فهي نفسها شقة الزوجية التي عشت فيها قبل أن يُلقى القبض علي ويتم الطلاق.. عموما.. لا يهم الآن.. علي أن أستعد للمواجهة.. ويجب أن أدخل بسرعة.. فالحر خانق.. وهذا أمر طبيعي كوننا في أواخر شهر مايو.

دخلت من البوابة الرئيسية بعد أن وجدتها مفتوحة لحسن الحظ.. وصعدت إلى الطابق الثالث مستخدما الدرج.. فلا أعرف لماذا لم أشعر بالرغبة في أخذ المصعد.. وكأنني فجأة بت أكره الأماكن الصغيرة المغلقة.. هل لأنني لم أستخدم أي مصعد منذ سنوات؟!.. لا أعرف.

وصلت إلى وجهتي.. لأقف عند باب شقتي القديمة.. وبطريقة متوترة.. إنه يوم السبت.. يفترض أن يكون الجميع في الداخل.. أتساءل إن كان مناسبا أن أطرق الباب أصلا.. كيف ستكون النتيجة؟!.. ما الذي سأقوله؟!.. لا أملك الإجابة.. لكن هناك شعورا داخليا قويا يقودني إلى الاستمرار رغم أن قلبي يخفق بقوة بسبب توتري.. قد تكون عاطفة الأبوة التي ظهرت فجأة بعد كل هذه السنوات مع الإحساس بالذنب!!.

أستند إلى الجدار القريب من الباب علني ألتقط أنفاسي بعد صعود الدرج.. وأستجمع شجاعتي بنفس الوقت.. دقائق طويلة ظللت خلالها متسمرا في مكاني مترددا في اتخاذ الخطوة التالية.. إلى أن شعرت بأحدهم يفتح الباب فجأة!!.. هذا أفضل.. لقد وفروا علي رهبة ضرب الجرس.. وأصبحت

المواجهة حتمية الآن.. أترقب بلهفة من سيخرج من الشقة.. لأرى فتاة جميلة متأنقة يفترض أنها في الـ20 من العمر.. إنها ممتلئة الجسد نسبيا.. متوسطة القامة.. طويلة الشعر بلونه الكستنائي الجميل.. تغلق الباب خلفها وتلتفت ناحية القفل لتدس مفتاحها فيه دون أن تنتبه إليّ.. ثم تلتفت وتصطدم بوجودي!!.. إنها المواجهة المنتظرة التي لا أعرف ستؤدي إلى أين.. الفتاة تحدق بي بذهول.. وتنظر إلى ثيابي المبعثرة.. وإلى لحيتي التي نمت بإهمال.. مع نظراتي الحادة العميقة.. والمنكسرة بنفس الوقت!!.. ترى.. هل تعرفتني بعد كل هذه السنوات؟!!.

قلت بابتسامة حزينة:

- كيف حالك يا عزيزتي؟!.. أنا.. أنا والدك.

تنظر إلي للحظات لتستوعب صدمة وجودي.. ثم تتمالك نفسها وتقول بصرامة:

- أنت؟!.. ماذا تفعل هنا؟!!.

أحدق بها بحنان.. غير مصدق كم كبرَت وتغيرت بعد كل هذه السنوات.. لأقول بانهزام:

- لقد.. لقد جئت لأطمئن عليكن.

صمتت للمرة الثانية غير مصدقة أنني أقف أمامها.. لتقول ببغض:

- تطمئن علينا من ماذا تحديدا؟!.. منك؟!.. لا عليك.. حياتنا هادئة جميلة.. فلم يكن يعكر صفوها سواك.

قلت متنهدا بحزن:

- لست من هؤلاء الذين يطالبون بتقديس الأب مهما فعل وارتكب من جرائم.. لكن.. ألن تقولي لوالدك ((حمدا لله على سلامتك)) على الأقل؟!.. لقد خرجت من السجن للتو.. و....



قاطعتني بعصبية وهي تقول:

- إن أحدا منا لم يزرك طوال سنوات سجنك.. ألم تكن هذه الرسالة كافية كي تفهم أننا لا نريدك في حياتنا؟!.. ثم هل علي أن أنسى كل ما فعلته بنا فقط لأنك والدي؟!!.. أي منطق هذا؟!.. اسمعني جيدا.. الأبوة مسؤولية.. الأبوة عطاء وتضحيات.. فهل فعلت أيّا من هذا في حياتك معنا؟!.. هل تعرف حجم الذكريات المؤلمة التي نحملها

أنا وشقيقتي تجاهك؟!.. أعطني سببا واحدا يجعلني أبتسم في وجهك.. إنني أراك الآن ولا أتذكر سوى القسوة والعنف.. بل أننا دنونا كثيرا من المبيت في الشارع بسبب الفقر.. لكن أمي أطال الله في عمرها كافحت وصبرت كي نعيش هذا الاستقرار المادي الذي يضمن لنا الستر.

لن ألومها على كلامها.. ولو قدّر لفنان أن يجسد حياتي الأسرية في لوحة فنية.. لرسم نسخة أخرى من لوحة (زحل يلتهم ابنه)* التي قرأت عنها في أحد الكتب أثناء وجودي في السجن.. حيث تجسد تلك اللوحة قسوة الأب وإن اختلفت الأسباب.. نعم إنني أب سيىء وقاس.. هكذا بكل بساطة.

لذا قلت من دون أن أعقب على كلامها:

- كيف حالكم الآن؟!.

ردت بكبرياء:

---

* (زحل يلتهم ابنه) (Saturn Devouring His Son) لوحة شهيرة قام برسمها الفنان الأسباني الكبير (فرانسيسكو دى خويا) (Francisco José de Goya) في الفترة 1819-1823 ميلادية.. وقد تم تصنيفها من قبل الكثيرين على أنها أقبح لوحة في التاريخ.. إذ تجسّد أسطورة إغريقية شهيرة عن إله وثني يبتلع ابنه حال ولادته.. خوفا من أن ينتزع منه العرش في المستقبل.. علما بأن اللوحة موجودة حاليا في متحف (مسيو ديل برادو) (Museo del Prado) والذي يعتبر أهم متاحف الفنون في (أسبانيا) على الإطلاق.

- جميعنا بخير.. لقد حصلت على دبلوم في المحاسبة.. وأعمل حاليا في إحدى شركات النفط.. شقيقتي تخرجت من المرحلة الثانوية منذ فترة بسيطة.. وتسعى للحصول على الدبلوم أيضا.. على أمل أن تحمل عني في المستقبل القريب شيئا من عبء المصاريف.. فأنا أصرف وحدي على أسرتنا الصغيرة هذه.. وأقوم بدور الأب الذي لم تقم به أنت طوال حياتك.. كل ما نريده أن تبتعد عن حياتنا فحسب.

شعرت ببعض الاطمئنان على حالهن لكني لم أعقب على كلامها.. لتكمل هي ببغض:

- ليتك اكتفيت بقسوتك وسوء معاملتك لنا.. بل تماديت ومرغت اسم عائلتنا بالتراب حين دخلت السجن بسبب قضايا النصب والاحتيال والمخدرات التي امتلأ بها ملفك القضائي.

تجاهلت كلامها للمرة الثانية.. وسألتها بصوت حنون بدا غريبا أن يخرج من شخص مثلي:

- هل تزوجت؟!.. هل تزوجت شقيقتك؟!.

ضحكت بسخرية مريرة وهي تقول:

- نتزوج؟!.. ما زلنا صغيرات أولا.. ثم أننا رأينا ما فعله الزواج بوالدتنا.. ولن نكرر الخطأ.

قلت بيأس:

- ليس جميع الرجال مثلي!!.

ردت باقتناع:

- الزواج مغامرة مخيفة لن نخوضها أبدا.. هذا قرار اتخذته مع شقيقتي منذ مدة.

قلت بتخاذل وأنا أنفث الهواء الساخن من صدري:

- ماذا عن والدتك؟!.. هل هي بخير؟!.

نظرت إلي بشيء من الاحتقار وهي تقول:

- لا.. إنها ليست بخير.. على عكسك تماما رغم أنها أصغر منك سنا.. فهي تعاني بعض الأمراض لما مرت به بسببك.. لكننا نعتني بها جيدا رغم كل شيء.. يبدو أن الإنسان يموت بسبب تراكم المواقف السيئة في حياته.. الأمراض ليست سوى نتيجة!!.. أطال الله في عمر أمي وحدها.

سكت دون رد تجاه تلك الإهانة الصريحة.. فسكتت هي بالمقابل.. قبل أن تنهي كلامها بغضب:

- كما قلت.. إننا بخير من دونك.. حياتنا هادئة.. ابتعد عنا.. لا نريدك أن.....

لم تكمل عبارتها.. إذ فُتح باب الشقة فجأة.. لكنه ظل مواربا.. أحدهم ينظر إلينا بفضول.. يبدو أن صوتنا لفت الانتباه.. إنها.. إنها ابنتي الصغرى.. لقد كبرت وتغيرت كثيرا بدورها.. أنظر إليها بحنان.. في حين تحدق بي محاولة أن تستوعب وجودي.. شقيقتها الكبرى تقول لها متهكمة:

- انظري.. لقد شعر أخيرا بالذنب.. وجاء ليعتذر بعد كل هذه السنوات!!.

تنظر إليها ابنتي الصغرى من دون فهم.. فتقول لها شقيقتها ضاحكة بمرارة:

- ألم تتعرفيه؟!.. إنه والدنا.. كما تقول أوراقنا الرسمية.

فتحت ابنتي الصغرى الباب على مصراعيه ووقفت على عتبته.. فرحت أتأملها بألم وهي ترتدي ثياب البيت.. إنها في

الثامنة عشرة من العمر على الأرجح.. وهي لا تقل جمالا عن شقيقتها الكبرى.. بل وتشبهها كثيرا في واقع الأمر.. لحسن الحظ أنهما أخذتا ملامح والدتهما ولم يأخذا أي شيء مني.

ابنتي الصغرى تقول بحدة:

- لماذا تزورنا بعد كل هذه السنوات؟!.. ألا يكفيك ما فعلته بنا ؟!.. أنا لا أعرفك.. ولم أكن لأعرفك لو صادفتك في الشارع.. إنك......

حسنا.. لا داعي لإعادة الكلام كي لا أصيبكم بالملل.. فهي تسرد تاريخي الأسود مرة أخرى وأنا ملتزم الصمت متجهم الملامح.. لا توجد أي وقاحة فيما تقوله.. بل هي مجرد حقيقة طال كتمانها.. مع الأسف.. أكثر الأشياء ألما.. ما كنا نملكه يوما ولم نشعر بقيمته إلا بعد فقده.. لأنني أشعر الآن فقط بقيمة هذه الأسرة.

ابنتي الكبرى تقول لشقيقتها بحزم:

- ادخلي واقفلي الباب.. ولو حاول مضايقتك اتصلي بالشرطة مباشرة.. عقد الإيجار باسم والدتنا الآن.. وهي لم تعد على ذمته.. ولا حق له في دخول شقتنا أبدا.

فامتثلت لها ابنتي الصغرى وأغلقت الباب بعد أن رمقتني بنظرة احتقار واضحة.. أما ابنتي الكبرى.. فالتقطت نفسا عميقا وأغمضت عينيها للحظة وكأنها تريد استعادة توازنها.. لتتجه ناحية باب المصعد.. وتضغط على الزر من دون أن تنطق بأي كلمة أخرى وأنا أنظر إليها بحنان بالغ.. يُفتح باب المصعد.. لتلتفت إلي وتقول بلهجة محذرة:

- كما قلت للتو.. هذه شقتنا الآن.. نحن ندفع الإيجار ونعيل أنفسنا.. ليس لك مكان بيننا.. ولا نريدك في حياتنا.. أنا لا أكرهك بالمناسبة.. لكني نبذتك من حياتي.. أنت غير موجود بالنسبة لي.. وتذكّر أنك لم تكسرنا أبدا.. بل كسرت مكانتك عندنا!!.

الغريب أنني تصرفت بطريقة عاطفية تخالف طبيعتي غير مكترث بكل هذه الإهانات المتواصلة.. فوضعت يدي على باب المصعد قبل أن يُغلق.. ثم حاولت وضع راحة يدي الأخرى على وجه ابنتي.. لكنها تراجعت وهي تنظر إلي محذرة ألا أفعل.. فقلت منهارا بعينين مغرورقتين بالدموع:

- سامحيني يا ابنتي.. لقد أخطأت في حقكم كثيرا!!.

وقفت ابنتي مصدومة غير مصدقة أن شخصا مثلي عرف دوما بالقسوة.. يأتي وينهار أمامها بهذه الطريقة.. لكن.. يبدو أن الذكريات كانت سيئة بالفعل.. إذ أشاحت بوجهها وكأنها تبذل جهدا كبيرا كي لا تشعر بأي تعاطف ناحيتي.. ودفعتني بيدها بصمت لتخرجني من المصعد.. فامتثلت لها وأنا أمسح دموعي وأنظر إليها بنفس الوقت.. لحظات خاطفة مع انغلاق باب المصعد.. تذكرت خلالها أنني لم أحتضن ابنتي ولا مرة واحدة في حياتي.. تخيلوا هذا؟!.

بالمقابل أذكر أنني ضربتها بقسوة عدة مرات في طفولتها.. فقط لأنني لم أحتمل شقاوتها بسبب المتاعب المالية التي جعلتني في مزاج سيىء طوال الوقت.. مصيبة حين تنظر إلى أسرتك على أنها مسؤولية فقط.. دون الانتباه إلى حقيقة بديهية للغاية.. وهي أن مهمة الأب الرئيسية أن يصنع لأطفاله ذكريات جميلة.. وإلا امتلؤوا مستقبلا بالعقد النفسية.. وأن تربية الطفل يجب أن تبدأ من خلال تربية والديه أولا.. قبل أن يفكرا بالإنجاب.

أقف وحدي وأتساءل.. لماذا قمت بزيارة ابنتيّ ووالدتهما رغم أنني توقعت هذا الاستقبال؟!.. هل كنت أظن أنهن

سيغفرن لي؟!.. هل كنت أظن أن زوجتي السابقة ستسمح لي بالعودة إليها لنعيش معا كأسرة سعيدة؟!.. مستحيل.. الجرح غائر ولن يندمل بهذه البساطة.. أنا نفسي لا أفهم سر تصرفي هذا.. قد يكون ضميري صحا فجأة بالفعل بعد أن خسرت كل شيء ووجدت أن أسرتي الصغيرة أثمن من أي شيء آخر في العالم.. إنني أتساءل بألم.. أين كان عقلي عندما فعلت كل ما فعلته في حياتي؟!.. لكن يبدو أننا نعيش دائما بعواطفنا.. ولا نستخدم عقولنا إلا حين نتعرض لصدمة.. وأن بعض الأخطاء لا تغتفر للأسف.. وعليك أن تدفع ثمنها مهما تغيرت.

المهم أن أسرتي بخير.. وقد تجاوزت ابنتاي ووالدتهما الفترة السوداء من حياتهن.. أردد هذا بيني وبين نفسي وأنا أخرج هاتفي النقال لأطلب سيارة أجرة.. ثم أنزل بشرود واضح عبر درجات السلم دون أن أفهم سبب تجنبي للمصعد.. إنني مشرد كما هو متوقع.. ويجب أن أبحث عن سكن مناسب.. لكن ليس قبل أن أزور صديقي (ناصر) الذي دخل معي عالم التجارة بالسموم البيضاء وظل بعيدا عن الشبهات حتى هذه اللحظة.. إنه الإنسان الوحيد الذي أثق به في العالم كله.. وهو يحتفظ بمبلغ ضخم من المال من إحدى صفقاتنا

المشبوهة.. أنا أستحق نصف هذا المبلغ.. وإنني على يقين أنه لن يغدر بي وسيمنحني حقي كاملا.. فقد سجنت من دون أن أشي به.. وهو لن ينسى لي تضحيتي أبدا.. أنا واثق من ذلك.. صحيح أنه لم يزرني أو يتواصل معي طوال سنوات وجودي في السجن.. لكني أتفهم السبب.. كان يخشى أن تحوم حوله الشبهات.. ولو كنت مكانه لفعلت الشيء ذاته.

المشكلة أن (ناصر) تعرض منذ فترة بسيطة لحادث مروري مروع تسبب له بإصابات بالغة.. إنه في العناية المركزة الآن بمستشفى (مبارك).. وهو في حالة حرجة.. ولا أظن أنه يستطيع التحدث.. لكن يجب أن أحاول.. كيف عرفت كل هذا؟!.. لقد جربت الاتصال به قبل خروجي من السجن بفترة بسيطة لأطمئن على وجود المال معه.. فوجدت أنه قد غير رقم هاتفه.. إنه أمر متوقع لتاجر المخدرات الذي يتوجب عليه أن يكون حذرا دوما ويغير رقم هاتفه بين حين وآخر.. لذا اضطررت إلى التواصل بـ (زملاء المهنة) القدامى.. بالطبع كان الجميع يتجنبني خوفا أن تحوم حولهم الشبهات.. لكن بعد جهد جهيد.. علمت من أحدهم بأمر الحادث.. وقد أصابني هذا بقلق شديد.. فـ (ناصر) الأمل الأخير بالنسبة

لي.. وسأكون في مأزق حقيقي إذا توفي -لا قدر الله- بسبب إصاباته.. لأنني لن أعرف حينها أين أخفى المال.. فمبلغ كهذا لا يمكن أن يكون قد أودعه في البنك.. كون البنوك ستطلب منه أوراقا رسمية لمعرفة مصدره كما هي العادة مع الإيداعات الضخمة.

اتجهت بعدها إلى مستشفى (مبارك) شاعرا بشيء من القلق بسبب مصيري المجهول.. وتوجهت إلى الاستعلامات حال وصولي كي أسألهم عن مكان العناية المركزة.. ليلتقط عامل النظافة سؤالي.. ويخبرني أنه سيقودني بنفسه إلى هناك.. إنها خدمة مقابل بقشيش كما هي العادة.. ويبدو أن موظف الاستعلامات وجدها فرصة كي يلتفت لمساعدة شخص آخر.. فتصرفت بدوري بطريقة عملية.. إذ أخرجت من جيبي دينارا منحته للعامل.. متحسرا في داخلي على كل مبلغ أصرفه كوني لا أملك الكثير.. مجرد بضعة مئات من الدنانير هي كل ما أملك في رصيدي البنكي.. بعد أن صادرت المحكمة كل الأموال التي جمعتها من تجارة المخدرات.. وأصبحْت بسبب ذلك مفلسا تقريبا.

تبعت العامل بهدوء عبر ممرات طويلة.. ومن ثم درجات السلم التي لا تسمع حولها شيئا سوى صدى أنفاسنا اللاهثة.. فقد رفضت استخدام المصاعد للمرة الثالثة اليوم.. إلى أن وصلت إلى جناح العناية المركزة حيث الهدوء التام.. سوى من رائحة الأدوية وصوت الأجهزة.. وكل ما يجعلك تشعر أنك محظوظ من أجل صحتك على الأقل.. أنظر إلى الممرضة الجالسة في الاستقبال.. إنها من الجنسية الهندية كما تبدو.. العامل يشير إلي أن أتحدث.. فمهمته انتهت عند هذا الحد وعلي التفاهم مع الممرضة وحدي الآن.

تنحنحت.. وطلبت منها أن تأخذني حيث صديقي (ناصر).. لتبتسم متعاطفة وهي تخبرني أن باستطاعتي أن أراه ولكن من خلال الحاجز الزجاجي المطل على الغرفة!!.. فشعرت بالذعر.. وتوسلت إليها أن تسمح لي بالدخول والاقتراب منه.. مدعيا أنه قريبي وأنني كنت خارج البلد منذ مدة.. وقد عدت للتو.. إلخ.. فوافقت على مضض.. شرط ارتداء الثياب الواقية قبلها.. لأمتثل لها وأنا أشكرها كثيرا.. ثم سألتها عن حالته.. فأخبرتني أن الحادث المروري الذي تعرض له كان كارثيا بمعنى الكلمة.. وأن وظائفه الحيوية غير مستقرة

جعلته يفقد وعيه بين الحين والآخر دون سبب واضح.. لهذا وضعه الأطباء تحت الملاحظة المستمرة.. الأمر الذي ضاعف مخاوفي أن يموت قبل معرفة مكان المال.

دخلت غرفة العناية المركزة بعد أن ارتديت الثياب الواقية التي جعلتني أبدو كممرض أنا الآخر.. فرأيت مجموعة من المرضى.. جميعهم في حالة حرجة بطبيعة الحال.. وكل منهم غارقا في عالمه الخاص لا يعي ما يدور حوله.. لتقول الممرضة بصوت منخفض وهي تشير إلى مكان (ناصر):

- 5 دقائق فقط.

التفت حيث أشارت.. و.. يا إلهي!!.. لم أتوقع أن تكون حالته بهذا السوء!!.. الإصابات طالت جسده بالكامل.. كسور ورضوض وتحطم أضلاع وكل ما يصنع من الجسد بقايا بشرية!!.. إن الجبيرة تلتف حول أجزاء كثيرة من جسده.. دعكم من فكه السفلي الذي تهشّم.. أما وجهه فلا أرى منه سوى عين واحدة.. بعد أن غطته أجهزة التنفس والضمادات.. ولو رأيت هذا المشهد في مسلسل.. لقلت أن هناك مبالغة كبيرة بتمثيل الإصابات.

ترى.. هل سيستجيب لو طلبت منه التحدث؟!.. لقد فاتني أن أسأل الممرضة عن ذلك.. عموما.. سأحاول.. لا يمكن أن أنتظر إلى أن يتعافى.. هذا على اعتبار أنه سيتعافى يوما!!.. فلا أعلم إن كان سيبقى على قيد الحياة بعد كل هذه الإصابات.. إنني أريد نصيبي فحسب.. مبلغ يضمن لي حياة كريمة طوال العمر.. وهو لن يساوي شيئا قياسا بما يمتلكه (ناصر) من مال جناه من تجارة المخدرات دون أن يقع في قبضة رجال الشرطة كما حدث معي.. أعرف أنه مال حرام.. لكن لا توجد حلول أخرى للأسف.

اتجهت ناحيته برهبة كوني أرى أمامي إنسانا واجه الموت فعليا.. وربما ما زال يواجهه.. أقف إلى جانب سريره بثبات وأنظر إلى عينه المغمضة.. الشيء الوحيد الذي يظهر لي من جسده.. أتنحنح وأناديه بهمس مبحوح:

- (ناصر).. احم.. (ناصر).. حمدا لله على سلامتك يا صديقي.. أتمنى لك الشفاء العاجل.

انتظرت بعض الوقت دون أن أرى أي رد فعل.. ثم.. رأيته يفتح عينه ببطء وإنهاك واضح.. رائع.. إنه يستجيب لي إذا.. وإن أخافني شكله إلى درجة كبيرة والحق يقال!!.. فقد بدا

وكأنه مومياء فرعونية بعين واحدة ستنهض في أي لحظة وتهاجمني كما يحدث في السينما.

سألته بلهفة وبصوت خافت متوسل حرصت أن يصل إلى مسامعه بوضوح:

- كيف حالك يا صديقي؟!.. أتمنى أنك تعرفتني بعد كل هذه السنوات.. لا أظن أنني تغيرت كثيرا على كل حال.. لقد خرجت من السجن صباح اليوم.. بعد أن قضيت فيه عقوبتي التي امتدت إلى 8 سنوات.. (ناصر).. أ.. أ.. أعرف أنك في حالة حرجة للغاية.. وأنا أتمنى لك الشفاء في أسرع وقت.. لكن الأمر مُلِح ولا يحتمل التأخير.. أحتاج المال كي أبدأ حياتي من جديد.. أريد نصيبي الذي وقعت في قبضة الشرطة قبل أن آخذه منك.. أنا واثق أنك احتفظت به من أجلي.. أخبرني.. أين خبأت المال؟!.. سآخذ نصيبي فقط.. أنت تعرفني جيدا وتعرف أنك تستطيع الوثوق بي.. أرجوك.. لا يوجد من أذهب إليه لمساعدتي بعد أن ابتعد عني جميع أفراد عائلتي.

إنه ينظر إليّ بثبات لفترة بدت طويلة.. ويحاول أخيرا التحدث من خلف الكمّام.. لكنه يعجز.. فيبتلع لعابه أكثر من مرة وهو يحاول جاهدا أن يقول شيئا.. فأقول بدوري مشجعا:

- تذكر يا صديقي أنني فضلت دخول السجن وحدي على أن أشي بك.. رغم أن إبلاغ الشرطة عنك كان سيخفف من عقوبتي.. وأنا لست نادما على ذلك أبدا.

ما يزال يتأمل ملامحي.. ثم تخرج منه كلمات هامسة مبعثرة غير واضحة.. ووجود الكمام على وجهه يجعل فهمها مستحيلا للأسف.. و:

- ماذا تفعل؟!.. لا يمكنك التحدث إليه!!.

التفت لأرى الممرضة وهي تنظر إلي بصرامة وتذكرني أن حالة (ناصر) سيئة جدا وأن علي الرحيل فورا لأتركه يرتاح.. فأنظر إليها بلوعة.. وأطلب منها السماح لي بالبقاء قليلا.. لكنها تخبرني بصرامة أن وقت الزيارة انتهى.. لأخرج من الغرفة بيأس وخيبة الأمل واضحة على ملامحي وأنا أشكر الممرضة ببرود.. لا مفر من التأجيل إذا.. يجب أن أنتظر.. عله يتعافى في الأيام القادمة ويكون قادرا على التحدث.

لم أعد أستطيع التفكير أكثر.. إنني مرهق.. مرهق جدا.. وأتضور جوعا كوني لم أتناول شيئا منذ الصباح.. لذا نزلت إلى الطابق الأسفل.. واشتريت لنفسي ساندويتشا من مقهى المستشفى.. تناولته بسرعة.. لأخرج بعدها مستقلا سيارة أجرة للمرة الثالثة

هذا اليوم.. حيث وضعت أمام وجه السائق مبلغا إضافيا يعادل ضعفي أجرته على الأقل.. ثم أخبرته صراحة أن هذا المبلغ سيكون بقشيشا له إن كان يستطيع أن يدلني على عمارات تؤجر الشقق للعزاب بأسعار في متناول اليد!!.. معظم سائقي الأجرة يعرفون أن هذه العمارات متوفرة رغم عدم قانونيتها.. فالدولة للأسف تمنع العزاب المواطنين -من الجنسين- من استئجار الشقق أو الفنادق خوفا من استغلالها لأمور غير أخلاقية.. لكن هناك دائما من يتحايل على القانون ويقوم بتأجير الشقق بالسر.. أعترف أنني قمت بنفسي باستغلال شقة في إحدى هذه العمارات منذ سنوات طويلة.. حيث كانت بمثابة غرفة العمليات التي أدير فيها صفقاتي المشبوهة.. لكني لن أعود إلى نفس المكان ولا يهمني أن أعرف إن كان قائما إلى الآن أصلا.. أريد الابتعاد تماما عن حياتي الماضية.

السائق ينظر إليّ مترددا.. فأؤكد له أنني لا أريد أي مشاكل.. بل أسعى للحصول على سكن فقط.. ليتنهد مستسلما وهو ينظر إلى البقشيش الذي ألوح به بيدي.. ثم يهز رأسه إيجابا ليلتفت ويبدأ بالقيادة.. في حين جلست على المقعد الخلفي وأغمضت عيني بقوة.. وذلك الصداع القوي بدأ ينحسر ويقل حدة لحسن الحظ.

أخذني السائق إلى منطقة (حولي) المكتظة بالعمارات السكنية والتجارية.. لنتجه إلى عمارة قديمة متهالكة تطل على أحد الشوارع الداخلية.. فتوقف عندها وهو يؤكد لي أنني سأجد ضالتي في هذا المكان.. نقدته ما وعدته به من دون أن أتأكد من صدقه.. ودخلت مسرعا باحثا عن البواب.. لأجده في غرفة صغيرة بالكاد تكفي لسرير ودولاب مع منضدة وضع عليها جهاز التلفاز.. حيث انشغل بمشاهدة فيلم أجنبي.. ألقيت عليه تحية سريعة ثم سألته عن أسعار تأجير الشقق.. ليخبرني أن تأجير أرخص شقة سيكلفني 70 دينارا شهريا.. فتنفست الصعداء.. هذا يعني أنني أستطيع الإقامة هنا بضعة شهور قبل أن ينفد المال الذي بحوزتي.

أخبرته مباشرة برغبتي في التأجير إن كانت لديه أي شقة شاغرة.. فألقى علي نظرة طويلة.. ليدّعي -وبشيء من الخبث- أن هذا سيتطلب بعض الأوراق الرسمية.. أهمها ما يثبت أنني متزوج.. هذا متوقع.. أخرجت بعض المال من محفظتي مباشرة.. وأخبرته أنه سيحصل على بقشيش محترم لو تغاضى عن الأوراق.. وأنني سأحتاج إلى الشقة بضعة شهور مع الوعد أنني لن أسبب أي متاعب.. ليرسم

على وجهه ابتسامة عريضة.. ويخبرني أنه موافق.. وأن بقائي هنا سيكون مخالفا للقانون وعلى مسؤوليته الخاصة.. هكذا بكل بساطة!!.. فوافقت بغضب لم أظهره.. شاعرا بالقهر كونه يستغلني بهذه الطريقة وأنا لا أملك ما أستطيع فعله.. ثم.. أخذني إلى تلك الغرفة في الطابق الثاني.

دخلت الشقة أخيرا وأغلقت الباب خلفي بعد أن نقدت الحارس الإيجار مقدما مع البقشيش.. ووقفت أتأمل المكان من الداخل.. شقة قديمة جدا من غرفة واحدة وغير مؤثثة.. ولا تحوي سوى السجاد المستهلك الذي تركه المستأجر السابق.. لا بأس.. شعرت بالاطمئنان.. وخرجت مرة أخرى إلى أقرب الأسواق المركزية أشتري بعض الثياب والاحتياجات الأساسية.. محاولا أن أقتصد في المال لأقصى درجة.. أستطيع تأجيل كل مخاوفي وقلقي إلى الغد لأستريح نفسيا اليوم على الأقل.. فأمامي متسع من الوقت.

عدت إلى الشقة.. وخلعت ثيابي.. لأضع رأسي تحت شلال المياه.. فالاستحمام طريقة فعالة للعلاج النفسي المؤقت.. خاصة لو تزامن معه حلاقة ذقني.. أحاول أن أتجاهل التفكير بكل شيء وأستمتع بتلك اللحظات.. أغمض عيني وأنا أكاد

أشعر بعمل الحمض النووي في خلايا جسدي من شدة الاسترخاء!!.. لكن لحظات الاسترخاء هذه لم تدم طويلا.. إذ سرعان ما وجدت نفسي أفكر تلقائيا بالمستقبل.. ربما سأعيش 30 سنة أخرى.. كيف سأعيشها؟!.. لا أسرة.. ولا وظيفة.. وصديقي الوحيد الذي يحتفظ بنصيبي من المال يصارع الموت.. وقد يموت ويدفن السر معه.. إنني حتى لا أعرف مكان إقامته.. وإلا كنت ذهبت وبحثت فيه.

انتهيت من الاستحمام بعد حوالي نصف ساعة.. وقمت بتنشيف جسدي بشرود.. ثم ارتديت منامتي التي اشتريتها منذ قليل.. لأتحرك بطريقة آلية متجها إلى غرفة النوم.. وأقوم بطي الفوطة التي اشتريتها منذ قليل أيضا لأصنع منها وسادة تريح رأسي.. سأنام على الأرض الصلبة.. من دون فراش أو حتى لحاف.. فمن عاش حياة السجون لن يجد مشكلة في ذلك.

استلقيت على الأرض وظللت أفكر لفترة طويلة رغم إرهاقي الشديد.. أفكر بحياتي كلها.. وبالمشاعر الجياشة التي تسيطر علي الآن.. والتي جعلتني أبكي أمام ابنتي الكبرى.. لماذا يا ترى؟!.. إنني لست على ما يرام.. هل هي علامات الشيخوخة

وقد أطلّت بحياتي فجأة فحولتني إلى كائن عاطفي؟!.. أم هو حال كل سجين خرج ليستنشق هواء الحرية لكن في سن متأخرة وبعد فوات الأوان؟!.. ماذا عن الحزن الشديد الذي أشعر به في هذه اللحظة.. هل لأن الأحزان تكبر ليلا؟!.. فعلا.. لقد حل الليل من دون أن أنتبه.. يبدو أن هناك أياما تعجز عن تجاوزها.. فتتجاوزك هي.. و.. كعادة التساؤلات التي تملأ رأسك.. وتتلاشى بسبب شعورك بالنعاس وذهابك إلى عالم الأحلام السحري.. أغمضت عيني وانفصلت عن العالم رغم أن الساعة لم تكن تتجاوز الثامنة مساء.. كم أعشق النوم.. ليس كسلا.. بل لأنه الطريقة الوحيدة للهروب من الواقع.

كيف كان استيقاظي؟!.. البعض يستيقظ شاعرا بالكسل.. والبعض الآخر يستيقظ نشيطا.. أما أنا فاستيقظت ميتا!!.. إذ ظللت صامتا هادئا مستلقيا في مكاني.. أشعة الشمس تنير الغرفة بأكملها لعدم وجود ستارة.. أنظر إلى الساعة في هاتفي.. إنها تتجاوز السابعة صباحا بقليل.. لقد نمت طويلا في ليلتي الأولى خارج السجن.. لا بأس.. أستحق مكافأة النوم الصغيرة هذه التي منحتها لنفسي.. أنهض متثاقلا لأغتسل.. وأنزل إلى الشارع باحثا عن مطعم فتح أبوابه في هذه الساعة

المبكرة كي أشتري وجبة الإفطار لأنني أتضور جوعا.. فلم آكل شيئا منذ ساندويتش الأمس.. إلى أن عثرت على مطعم قريب اشتريت منه ما يسد جوعي.. ولا أنسى الشعور الغريب حين تلتقي ببشر طبيعيين يمارسون حياتهم اليومية.. لقد افتقدت هذا المنظر في السنوات الماضية.. المشكلة أنني أرى كل الناس تقريبا بوجه واحد.. وهذا طبيعي.. فمن علامات الشعور بالوحدة.. أن تجد البشر حولك يتشابهون في كل شيء!!.

أعود بعدها إلى الشقة.. فأجلس لألتهم الطعام وعقلي يفكر بصفاء أكبر من الأمس.. أحاول وضع خطة طوارئ للمرحلة القادمة من حياتي.. وأقوم بتقسيم حساباتي كي أعيش على المبلغ الموجود بحوزتي لأطول فترة ممكنة.. أستطيع البقاء في هذه الشقة -أو في أي شقة أخرى بهذه المواصفات- حوالي 5 شهور.. قبل أن أفلس تماما.

ولو مت وتعفنت جثتي خلال تلك الفترة.. لما علم أحد سوى الحارس الذي سينتبه أنني تأخرت في دفع الإيجار.. وربما لن يحضر جنازتي سوى بعض المحسنين وعمال البلدية الذين سيقومون بإجراءات الدفن.. عموما.. المرء لا تكتمل شخصيته إلا في وحدته.. فكلما انعزل.. اكتشف نفسه أكثر.

أضع آخر لقمة في فمي وأنا أفتح هاتفي القديم وأعبث في الأرقام الموجودة فيه.. ولا أتحدث هنا عن الهاتف الذي هربته سرا إلى السجن.. بل هاتفي القديم الذي كان بحوزة رجال الأمن لـ 8 سنوات وقاموا بتسليمه لي حال خروجي من السجن.. ثم أغتسل وأبدأ بالتدخين.. سيجارة تلو الأخرى.. تلك الهواية التي أمارسها منذ سنوات طويلة ولم أتمكن من الإقلاع عنها.

ما زلت أستعرض الأرقام والأسماء الموجودة في ذاكرة هاتفي.. بائعات هوى.. مدمني وتجار مخدرات.. أسماء أقرؤها لأول مرة منذ سنوات.. وقد أقسمت على عدم التواصل معها أبدا.. سأتخلص من هذا الهاتف.. أو ربما أبيعه.. إنه قديم لا حاجة لي به.. و.. ظهر أمامي فجأة اسم (غادة).. ياااه.. غير معقول!!.. كيف نسيتها طوال هذه السنوات؟!.. إنها واحدة من الفتيات اللاتي خرجن من أسرة مفككة.. فانتهى بها الأمر إلى طردها من البيت على يد زوج والدتها.. لتقودها حاجتها للمال إلى عالمنا السفلي القذر.. حيث التقيت بها في إحدى الصفقات المشبوهة.. أكاد أجزم أنها فتاة رقيقة خيرة لا تنتمي إلى عالم الإجرام لولا قسوة ظروفها.. أعرف أن هذا ليس عذرا.. لكننا نحتاج أحيانا لدراسة سلوكية كاملة لمعرفة

أسباب اختيار الإنسان للجريمة.. فقد يكون هو نفسه ضحية.. تماما كحال (غادة).. أتساءل إن كانت الجهات المسؤولة في مجتمعنا تمتلك دراسة عن حالات كهذه أصلا.

أتذكر أن (غادة) كانت تحصل على عمولة جيدة حين تقوم بتوصيل المخدرات إلى من يطلبها.. وكانت تعتبر حلقة وصل مهمة بين تاجر المخدرات والمشتري كونها فتاة.. فالشبهات تحوم عادة حول الرجال.

ما زلت أنظر إلى رقم هاتفها على الشاشة.. هل أمحوه من حياتي؟!.. أم.. أطلبه؟!.. وهل ما زال هذا رقمها أصلا؟!.. إنني لم أتواصل معها منذ سنوات طويلة.. بل ولم ألتق بها سوى مرات قليلة حين احتجت لها لإتمام بعض الصفقات المشبوهة.

في النهاية.. حسمت أمري وطلبت الرقم.. يرن الهاتف للحظات.. ثم يرد شخص من جنسية عربية ويخبرني أن هذا رقم هاتفه الآن وقد حصل عليه منذ مدة طويلة.. كما توقعت.. فتاة كهذه يستوجب عليها تغيير رقم هاتفها بين حين وآخر.. حاولت -بدافع الفضول- العثور على رقمها.. لكني فشلت رغم أنني قمت بزيارة معظم التطبيقات

الإلكترونية التي تبحث لك عن أرقام الناس.. ففكرت أن أذهب لزيارتها.. إنني أعرف مكان سكنها.. أتذكر أنني أوصلتها إلى شقتها يوما في تلك العمارة بمنطقة (الفروانية).. بالطبع أدرك أن فرصة العثور عليها في نفس المكان ضعيفة للغاية.. لكن الأمر يستحق المحاولة.. فأنا أملك الكثير من وقت الفراغ ولا أعرف ما أصنع به.. وما يزال هناك متسع من الوقت للتفكير بمصيري.. منتظرا وآملا أن تتحسن حالة (ناصر) كون حياتي بأكملها متعلقة به.

لم أنتظر طويلا.. إذ ذهبت لأغتسل.. ثم ارتديت ثياب الخروج الوحيدة التي أمتلكها والتي اشتريتها مساء أمس أيضا.. وخرجت مستقلا سيارة أجرة متجها إلى شقة (غادة) وقلبي يدق بعنف طوال الطريق.. كأنني مراهق.. متسائلا في قرارة نفسي عن سبب هذا الشغف المفاجئ للوصول إليها!!.. هل هو البحث عن شخص يملأ حياتي الفارغة فحسب؟!.. على الأرجح نعم.. مؤكد أن الوحدة القاتلة هي التي تجعلني ألهث وراء آدمي قد يرحب بي ويسمح لي أن أتجاذب معه أطراف الحديث وهو يعرف حقيقتي كاملة.. خاصة لو كان هذا الآدمي فتاة.

أخذني سائق سيارة الأجرة إلى تلك العمارة السكنية القديمة معتمدا على ذاكرتي التي آمل ألا تكون قد خانتني.. فأترجل من السيارة متجاهلا الازدحام الدائم في منطقة (الفروانية).. وأتجه إلى البوابة الرئيسية.. ثم أصعد درجات السلم بخطوات هادئة.. الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحا.. آمل أن أعثر على (غادة) هنا.. وأن تكون قد تابت بدورها وبدأت تكسب عيشها بالحلال كما يقولون.. وألا تراني جزءا من الماضي الأسود الذي تحاول الهرب منه.. فجميعنا نهرب من ماض ما.. إلا أنه يطاردنا بين حين وآخر!!.

أقف في الدور الرابع.. إنه الدور المطلوب على ما أظن.. فقد دار بيننا حوار جانبي حين أوصلتها في ذلك اليوم.. وأخبرتني أنها تعبت من المصعد الذي يتعطل بين فترة وأخرى.. مما يضطرها لاستخدام الدرج أحيانا كثيرة كي تصعد إلى شقتها في هذا الدور!!.. أتمنى ألا تكون قد كذبت علي.. فهذا وارد أيضا.. على كل حال.. لا بد من المحاولة.. توجد 4 شقق هنا.. أي منهم شقتها يا ترى؟!.. أحاول أن أسترق السمع عند الباب الأول.. صراخ أطفال في تلك الشقة.. لا أظن أن (غادة) تزوجت وأنجبت وما تزال تعيش في نفس المكان..

من الصعب أصلا أن تتزوج فتاة بماض كهذا.. لذا.. اتجهت ناحية شقة أخرى.. وطرقت الباب.. لترد سيدة من جنسية آسيوية -دون أن تفتح لي- وتسألني عن هويتي.. فاعتذرت لها بأنني أخطأت العنوان.. لأنتقل إلى الشقة الثالثة.

أطرق الباب.. مرة.. مرتين.. أحدهم ينظر إلي من خلال العين السحرية لفترة ليست بقصيرة.. وكأنه يتفحص ملامحي جيدا.. ثم.. صوت أنثوي رقيق يسألني عن هويتي.. لا أعرف إن كان هذا صوتها كوني لم أسمعه منذ سنوات.. عموما.. إن كانت (غادة).. فهي تعرف من أنا.. لكنها قد تمارس تلك اللعبة خوفا أن أكون مراقبا أو أنها تريد أن تتجنبني فحسب.. لا توجد سوى طريقة واحدة للتأكد.. قلت بصوت خافت:

- (غادة)؟!.. هل هذا أنت؟!.. هل عرفتني؟!.. إنني....

لم تمنحني الوقت لأذكرها بنفسي.. بل قاطعتني مباشرة وهي تسألني من خلف الباب:

- ماذا تريد؟!.

انتفض قلبي.. وتدفق الحماس في روحي.. إنها هي إذا.. وإلا كانت ستخبرني ببساطة أنني أخطأت العنوان.. قلت بلهفة:

- لقد خرجت من السجن منذ يومين.. لا تخشي شيئا أرجوك.. أنا لست في ورطة مع رجال الشرطة إن كان هذا ما تظنينه.. ولم أعد أدين للقانون بشيء.. أردت فقط لقاءك والاطمئنان عليك.

سكون يعم المكان للحظات.. إنها تنظر إلي عبر العين السحرية للمرة الثانية ولمدة ليست بقصيرة.. ثم اتخذت قرارها.. إذ فتحت الباب بتوجس وبطء شديد.. خفقات قلبي تتسارع وكأنني مراهق يلتقي حبيبته بعد فراق طويل.. لأراها أخيرا وهي ترتدي ثياب البيت.. هذا لا يصدق.. إنها لم تتغير رغم كل هذه السنوات.. ذات الفتاة المنكسرة الهشة النحيلة.. حتى لتخشى أن تنكسر كمزهرية زجاجية لو دفعتها بيدك وسقطت.. لماذا أنظر إليها بصمت وحنان؟!.. وكأنني كنت وحيدا في جزيرة نائية.. ثم عثرت على الصحبة الآدمية أخيرا.. أعتقد أنها في أوائل الثلاثينيات من عمرها الآن إن لم أكن مخطئا.

تنظر حولي بسرعة لتتأكد أنني جئت لوحدي.. ثم تمسك يدي وتسحبني سحبا إلى الداخل.. وتغلق الباب بسرعة وهي تسألني بتوتر دون أن تلقي علي أي تحية:

- متى خرجت؟!.

قلت بارتياح:

- صباح أمس.. لم أتمكن من العثور على رقم هاتفك.. ففكرت بالمجيء مباشرة والبحث عنك في نفس مكان سكنك القديم.. لحسن الحظ وجدتك.

ردت بتوتر:

- لقد غيرت رقم هاتفي بالفعل منذ سنوات كي أبتعد عن عالم المخدرات.. فقد قررت منذ مدة طويلة ألا أسلك هذا الطريق ثانية.

كانت تتحدث بارتباك شديد.. فقلت مشجعا:

- لا يوجد إنسان يستحق أن ترتبكي أمامه.. صدقيني.

تنحنحت مبتسمة وهي تحاول أن تتدارك نفسها.. ثم قالت:

- المعذرة.. كنتَ دوما قليل الكلام.. وأنا أشعر دائما بالهيبة تجاه قليلي الكلام!!.

لم أرد.. ابتسمت فقط ببساطة وبصورة توحي أنني لست بتلك الخطورة كما تظن.. ثم دعتني للجلوس في صالتها الصغيرة.. أنظر حولي لأجد أثاثا متهالكا وبسيطا جدا..

وتلفاز من طراز قديم نسبيا يبث فيلما عربيا قديما.. أتمنى أن يحيط بي الأبيض والأسود أنا أيضا لأجد نفسي في الفيلم.. فمشاكلهم في الماضي طريفة وشبيهة بمشاكل الأطفال مقارنة بزمننا الحالي.. كم أعشق الأزمان التي لا أتواجد فيها.. وكم هي حميمة هذه الشقة.. و:

- كيف حالك؟!.

قالتها فجأة لتقطع أفكاري.. لأبتسم بالمقابل وأنا أنظر إليها.. هذا السؤال لا يختلف كثيرا عن (كم الساعة الآن)؟!.. فلن أضيع وقتي بشرح آلامي.. بل اكتفيت بهز رأسي إيجابا بما يوحي أنني بخير.. ثم سألتها مستغربا:

- لم أتوقع أن أجدك في نفس مكان سكنك بعد كل هذه السنوات.

ردت قائلة:

- لا أخفيك سرا.. لقد عشت في رعب وقلق متواصلين حين سمعت خبر إلقاء القبض عليك.. وخشيت كثيرا أن تشي بي.. فبت أترقب الشرطة في أي لحظة.. حتى أنني فكرت بالخروج من شقتي هذه والانتقال لمكان آخر.. لكن هذا

لم يكن كافيا كي أشعر بالاطمئنان كون الشرطة ستعثر علي أينما ذهبت عاجلا أم آجلا.. فقد قتلتني الوساوس إلى درجة أنني فضلت البقاء هنا والاستسلام لمصيري.

أفهم شعورها جيدا كوني عشت أياما كثيرة أعاني هذا القلق.. قبل أن تتحقق مخاوفي وتلقي الشرطة القبض علي.. فأردفت متعاطفا:

- القلق كارثة حقيقية.. فحتى لو تخلص المرء من جميع مخاوفه.. القلق سيجعله يخاف من عدم الخوف!!.. ويجعله يتساءل في قرارة نفسه.. ما الذي حدث؟!.. لماذا لم أعد أقلق؟!.. هل هذا جيد أم سيىء؟!.. هل فقدت الإحساس بالمسؤولية؟!.

نظرت إلي بإعجاب.. وقالت:

- بالضبط.. هذا ما كنت أشعر به.. لكني في النهاية اكتفيت بابتعادي عن تجار المخدرات وتغيير رقم هاتفي.. ومع مرور الأيام.. تأكدت من معدنك.. وأنك فضلت الذهاب إلى السجن وحيدا على أن تشي بأحد.

ابتسمت.. وسألتها صراحة:

- ماذا عن إقامتك هنا وحيدة؟!.. ألم يثر هذا الشبهات؟!.. ماذا عن الجيران؟!.

نظرت إلى السقف.. وقالت:

- من كان بيته من زجاج.. ينعزل حزنا!!.. وقد انعزلت حزنا بالفعل لكن دون فائدة.. المشكلة أن هدوء الشخص أحيانا يسبب الضجيج لكل من هم حوله.. إذ حاول بعض الجيران التواصل معي والتعرف علي.. وبعضهم كان يرى بي فريسة سهلة تشبع رغباته.. لذا ازددت عزلة وظللت محتفظة بعلاقتي السطحية مع الجميع.. والتي لا تتجاوز هز الرأس حين ألتقي بهم أثناء خروجي من شقتي.. فالعلاقات السطحية لا تندم عليها أبدا.. لكن رغم ذلك.. ما زلت أشعر بهم يتهامسون حين يرونني بين حين وآخر.. كما ترى.. إنني أحتفظ بالشيء الكثير مني لنفسي.. ولا أحب أن أختلط بأكملي مع أحد.

ضحكت.. وقلت محاولا تغيير دفة الحديث:

- (غادة).. لا يمكن أن تتخيلي سعادتي لأنني عثرت عليك.. إنك أول مخلوق أتجاذب معه أطراف الحديث بهذا الود

منذ سنوات طويلة جدا.. ابتداء من السجن وحتى إلى ما بعد خروجي منه.

ابتسمت ممتنة لكلامي.. ثم سكتت وهي تنتظر مني أن أقول شيئا.. لأسألها:

- ماذا عن وضعك المادي بعد أن ابتعدت عن طريق المخدرات؟!.

ردت ببساطة:

- حين تتميز في أي مجال.. لن يتمكن أحد من تجاهلك.. إنني طباخة ماهرة.. وهذا عملي الوحيد حاليا.. لدي حساب في أحد مواقع التواصل الاجتماعي.. أبيع خلاله ما أعده من حلويات ومأكولات متنوعة.. وأقوم بتوصيلها بنفسي لمن يطلب.. إنني أمتلك سيارة صغيرة تفي حاجتي.. لا تخش علي.. أنا بخير.. فاحتياجات فتاة مثلي بسيطة عموما.. وتأكد أن طريقة حياتي الحالية هي جل طموحي.

شعرت بالسعادة من أجلها.. فأكملت وهي تنظر إلي ممتنة:

- لك الفضل بشكل أو بآخر بما أنا فيه من استقرار.. كما أتذكر أنك وقفت إلى جانبي حين أراد بعض الأوغاد استغلالي

لإشباع غرائزهم القذرة.. بالمناسبة.. ماذا عنك؟!.. ماذا ستفعل الآن بعد خروجك من السجن؟!.. كيف ستعيش؟!.

قلت متنهدا:

- أحاول ممارسة أهم رياضة للدفاع عن النفس.. اللامبالاة!!.

ابتسمت لكلمتي مجاملة.. ثم نظرت إلي بجدية وكأنها تنتظر مني إجابة واقعية.. فقلت وقد قررت أن أخرج الهم الذي يثقل كاهلي:

- لا أظن أنك تعرفين صديقي (ناصر) لأنك لم تلتقي به من قبل.. لقد قمنا معا بصفقة كبيرة منذ سنوات.. حصلنا خلالها على مبلغ ضخم كان يفترض أن نتقاسمه.. قبل أن يتم القبض علي للأسف.. ليظل المبلغ بأكمله عند (ناصر) منذ ذلك الحين.. المشكلة أن صديقي هذا تعرض لحادث مروري بالغ السوء.. إنه في حالة خطرة ولا يستطع التحدث.. وأنا حاليا أنتظر.. فقط أنتظر!!.. آملا أن يتعافى ليتمكن من الكلام على الأقل.. فيخبرني بالمكان الذي أخفى به نصيبي من المال.. وإلا.. سأكون في مأزق لا أعرف كيف سأخرج منه.

ردت باهتمام:

- لكن.. ربما أنت مراقَب من قبل رجال الشرطة.. وهم ينتظرون لحظة عثورك على المال ليلقوا القبض عليك ويقوموا بمصادرته!!.. ألا تخشى هذا الاحتمال؟!.

قلت بثقة:

- هذا لن يحدث.. فقد حصلت على المال من صفقة مخدرات ضخمة.. وليس نتاج عملية سطو مسلح على بنك مثلا.. رجال الشرطة لا يعرفون أي شيء عن هذا المال.. دعك من أن (ناصر) ظل بعيدا عن الشبهات حتى هذه اللحظة.

سألتني بحذر:

- أنا لا أعرف (ناصر) هذا.. لكن.. أعتقد أنه من العسير أن تثق بشخص إلى درجة أن يقوم بتسليمك مبلغا ضخما من المال كما تقول.. خصوصا بعد كل هذا السنوات.. ما أدراك أنه اختار أن يحتفظ بالمبلغ لنفسه؟!.

هززت رأسي نفيا وأنا أقول بثقة:



- مستحيل.. إنني أثق بـ(ناصر).. صدقيني.. نصيبي بأمان معه.. أحتاج فقط أن يتعافى ويعود إليه وعيه كاملا كي أستطيع التحدث معه.

سألتني مستفهمة:

- لماذا لا تذهب إلى مكان سكنه؟!.. ربما يحتفظ بالمال هناك؟!.

قلت ساخطا:

- لأنه غير مكان سكنه كما علمت خلال اتصالاتي بأحد معارفي.. ولا أعرف مكانه الجديد.. فهو لم يتواصل معي أبدا طوال فترة سجني خوفا أن تحوم حوله الشبهات.. خاصة وأنه ظل يمارس الاتجار بالمخدرات ولم يتوقف للأسف.. عموما.. سأزوره مرة أخرى خلال الفترة القادمة.. آمل أن تتحسن حالته ويتمكن من التحدث.

لم تعقب على كلامي.. بل صمتت وهي تبتسم متعاطفة.. ليسود المكان ذلك الهدوء الذي يجعلك تشعر أن الزيارة انتهت وأن عليك الرحيل.. فنهضت وأنا أشكرها على استضافتها.. مبديا سعادتي أنها بخير وأنها ابتعدت أخيرا عن الطريق القذر

الذي سلكْتُه منذ سنوات.. لتمد يدها وتصافحني بحرارة وهي تشكرني على زيارتي.. حيث تركتها مودعا عائدا إلى شقتي بعد أن حصلت على رقم هاتفها.. موقنا في قرارة نفسي أنني سأظل على تواصل معها كونها الشخص الوحيد الذي يعرف كل شيء عني ويحمل لي بعض المودة رغم ذلك.

أكاد أسمع البعض يتساءل.. كيف يمكن لرجل أن يزور فتاة تعيش وحيدة في شقتها بهذه البساطة؟!.. وأنا أرد وأقول أنني كنت مع (غادة).. وكان الاحترام ثالثنا!!.. لم تكن هناك أي شياطين!!.. دعكم من أننا نختلف أصلا عن بقية الناس.. نحن أصحاب سوابق.. هذه هي الحقيقة مهما تنصلنا منها.. ومهما ندمنا عليها.

لا يوجد الكثير ليقال حول الأيام القليلة التالية.. إذ كانت تتشابه في محتواها كقطرات الماء.. نوم وجلوس أمام شاشة هاتفي.. أو الجلوس في أحد المقاهي على سبيل التغيير.. ثم العودة إلى شقتي.. مع التفكير المستمر.. ولم أتوقف خلالها عن التواصل المستمر مع المستشفى للسؤال عن حالة (ناصر).. وفي كل مرة أصاب بخيبة الأمل ويتصاعد عندي الشعور بالقلق بنفس الوقت.. فحالته لم تتحسن إطلاقا.

ولا أنسى أن أذكر أنني كنت أتواصل مع (غادة) أيضا.. مجرد رسائل عبر وسائل التواصل الاجتماعي للسؤال عن حالها وتبادل الحديث حول أمور جانبية.. كان هذا يشعرني أن هناك أحدا في حياتي على الأقل.. فلم أعد أطيق الوحدة رغم أنني عشتها سنوات طويلة وفرضتها على نفسي فرضا في السجن!!.. أعتقد أن الأمر يتعلق أكثر بالارتباط مع شخص من الجنس الناعم.. و(غادة) هي الوحيدة المتاحة.

بعد أقل من أسبوعين من هذا الاستقرار المكاني -وليس النفسي- علمت صباح ذات يوم من المستشفى أنهم قاموا بنقل (ناصر) من العناية المركزة إلى غرفة عادية.. وهذا يعني بالتبعية أن حالته تحسنت أو استقرت.. ولو نسبيا!!.. فهرعت كالمجنون لزيارته.. واتجهت مباشرة إلى غرفته بخطوات سريعة على أمل إنهاء الموضوع الذي شغل كل تفكيري منذ خروجي من السجن.. مع الاطمئنان عليه بالطبع ومحاولة إقناعه كي يبتعد عن هذا الطريق ويبدأ حياة جديدة.. و.. أصبت بخيبة أمل جديدة للأسف.. إذ لم تتغير حالته!!.. بالنسبة لي على الأقل.. إنه تماما كما رأيته في المرة الأولى.. الغرفة فقط التي تغيرت.. فذهبت لسؤال الممرضة.. لتخبرني أن بقاء (ناصر) في العناية المركزة لم يعد

له معنى كما يقول الطبيب.. خاصة وأن جميع الفحوصات والأشعة المقطعية أثبتت أن أعضاءه الحيوية مستقرة تماما.. رغم أنه ما زال يفقد الوعي أحيانا كثيرة.. وهو لغز لم يفهمه الأطباء بعد على حد قولها.

تركت الممرضة.. وعدت إلى غرفة (ناصر).. أقف بالقرب من سريره.. وأنظر إليه بشيء من التوتر.. عينه الوحيدة التي تظهر لي مغمضة.. لا أعرف إن كان نائما أو فاقدا للوعي.. يجب أن أحاول.. خاصة وأنني أمتلك مساحة من الحرية هنا ولن يراقبني أحد كما كان الحال في غرفة العناية المركزة.. مما جعلني أستغل تلك النقطة جيدا.. فذهبت لأغلق باب الغرفة.. واتجهت ثانية ناحية (ناصر).. ثم قمت بهز كتفه برفق محاولا إيقاظه وأنا أناديه بصوت هامس.. ليفتح عينه بعد لحظات وينظر إلي بشيء من الضياع بسبب الإرهاق ربما.. عندها طلبت منه برجاء أن يستجمع قواه ويحاول التحدث.. فغمغم هامسا بكلمات لم أفهم منها شيئا.. أقترب منه.. أحاول أن أفهم ما يقول.. لكن من دون فائدة!!.. لا.. لن أعود خائبا كما حدث في المرة السابقة.. لا بد أن أتصرف.. لقد مللت الانتظار.

أنظر حولي بشيء من اليأس.. ثم.. رأيت ذلك الدولاب الصغير في الغرفة.. ترى هل سأجد شيئا يخصه قد يكون ذا فائدة؟!.. مشيت بخطوات هادئة متوترة تجاه الدولاب.. لأجده خاليا سوى من كيس بلاستيكي شبيه بأكياس الأسواق المركزية.. فتحت الكيس محاولا ألا أصدر أي صوت يلفت انتباه الممرضات في الخارج.. لا أجد سوى ثيابه الملوثة بالدماء.. لماذا لم يتخلصوا منها يا ترى؟!.. ربما هي عهدة ولا يحق لأحد التخلص منها سوى (ناصر) نفسه.. أو أقاربه.. وبما أن أحدا لم يزره أو يسأل عنه.. تركوا كل شيء في هذا الكيس.. مهلا.. كيف فاتني هذا؟!.. رحت أفتش بين جيوبه بسرعة.. ليصطدم أُصبعي بشيء معدني.. أخرجته بلهفة.. إنها.. إنها سلسلة صغيرة تحوي مفتاحا معدنيا!!.. إنه مفتاح شقته دون شك.. ليتهم تركوا محفظته هنا أيضا.. كنت سأتوصل إلى عنوانه من هويته الشخصية.. لكن.. لا شيء غير هذا المفتاح!!.. فوضعته في جيبي على أمل أن أعرف مكان سكنه بطريقة أو بأخرى.

اتجهت بعدها ناحية (ناصر) ثانية.. ما يزال ينظر إلي بوهن.. أفكر بطريقة تجعله يتحدث بكلمات مفهومة.. كيف سأفعل ذلك بوجود الكمام الذي يغطي نصف وجهه

والهمهمات المختلطة بكلامه؟!.. عندها فقط واتتني فكرة بسيطة لكني وجدتها فعالة.. إذ أخرجت هاتفي من جيبي.. وقمت بتشغيل كاميرا الفيديو لأوجهها ناحية (ناصر).. هذه المرة ستسجل الكاميرا كل شيء يقوله.. بكل هدوء ومن دون استعجال.. وسيكون أمامي الوقت كله لأشاهد التسجيل لاحقا حين أعود إلى شقتي.. وسأحاول حينها أن أفك طلاسم كلامه.. يجب أن أبذل قصارى جهدي لأستفيد من وجوده على قيد الحياة.. فبقاؤه على هذه الحال لفترة طويلة ليس بالأمر المستبعد كما سمعت من الممرضة منذ قليل.. أو لو وقع المحظور وتوفي لا قدر الله.

سألته بصوت هامس متعاطف عن مكان المال للمرة الثانية في هذه الزيارة.. ورجوته أن يحاول التحدث.. فنظر إلي نظرة طويلة.. وراح ينطق بكلمات أخرى مشتتة وفمه خلف الكمام.. الكاميرا ما تزال تسجل كل شيء.. ورغم أن ملامحه ما تزال مخفية بالكامل بسبب الضمادات التي تلف وجهه.. إلا أنني رأيت الغضب واضحا في عينه الظاهرة لي!!.. هل لأنني أقوم بتصويره بهذه الطريقة الوقحة المستفزة ولا أراعي حرمته كمريض؟!.. يا لحماقتي.. بالطبع سيغضبه هذا.. أبعدت الكاميرا عن وجهه.. ووجهتها ناحيته من زاوية

أخرى من دون أن ينتبه.. ثم أخذت نفسا عميقا.. وقلت بصبر متجاهلا غضبه:

- (ناصر).. أرجوك يا صديقي حاول أن تهدأ.. أنا لا أريد لك الضرر.. إنني فقط بحاجة لمساعدتك.. أنت الملجأ الوحيد لي في هذا العالم.. أعدك أنني سأكون عونا لك كما كنت في السابق حين دخلت السجن ولم أشِ بك.. صدقني.. سأحتفظ لك بنصيبك.. والآن أخبرني.. أين حصتي من المال؟!.

ما زال يحاول جاهدا التحدث من خلف الكمّام.. لكنه يعجز.. ثم فجأة.. أراه يرتجف بقوة في فراشه.. عندها فقط رأيت ذلك الشيء المخيف عبر شاشة هاتفي.. الشيء الذي غير مسار قصتي بأكملها!!.. ولولا أنني رأيته بنفسي.. لما صدقته أبدا!!!.. إنني أنقل بصري بين شاشة هاتفي و(ناصر).. وأقوم بعدها متعمدا بوضع الكاميرا أمام وجهه.. فقط لأتأكد مما أراه.. لماذا يظهر هذا الشيء على شاشة هاتفي ولا أراه في الواقع بعينيّ المجردتين؟!.. هل هو خلل في الهاتف؟!.. لا يبدو لي الأمر كذلك.

لا أعرف كيف أصف الذي يحدث.. لقد.. لقد كان يخرج من رأس (ناصر) شيء لم أرَ مثله في حياتي؟!.. هل هو ضوء؟!!..

وكأنه ضوء بالفعل.. لكنه أسود اللون!!.. ضوء أسود يخرج من رأسه بهدوء وبطء شديدين متجها إلى السقف.. أنظر مرة أخرى إلى الشاشة بتمعن وتوتر.. هذا شعاع من الضوء الأسود بكل تأكيد وليس دخانا مثلا!!.. لا أستطيع أن أجزم كيف تشكل بالضبط.. لا.. لم يتشكل.. فقد ظهر فجأة.. والأغرب من كل هذا أن الضوء لم يكن مستقيما.. بل ينحني بطريقة غريبة كالثعابين!!.. وكأنني أراه خلال آلة عرض قديمة للرسوم المتحركة*.. كيف يمكن للضوء أن ينحني؟!.. المعذرة.. فمن الصعب وصف ما أراه بصورة دقيقة.. أعرف أن البعض يتخيل الموقف بطريقة هزلية مضحكة.. لكن المشهد بدا لي مخيفا غريبا مذهلا تجمدت على إثره يدي الممسكة بالكاميرا من دون قصد.. ولو كان هذا مشهدا في السينما لشعرت بالرعب.. فما بالكم وأنا أراه أمام عيني؟!.

إنني إنسان واسع الاطلاع والثقافة -بعيدا عن فشلي في دراستي- بعد كل ما قرأته من كتب في السجن.. وأدرك جيدا

* يتحدث هنا عن جهاز (زوبراكسسكوب) (Zoopraxiscope).. وهو أول جهاز لعرض الرسوم المتحركة في العالم.. اخترعه الفوتوغرافي البريطاني (إيدويرد مايبريدج) (Eadweard Muybridge) عام 1879.. ويعمل الجهاز عن طريق إدارة قرص زجاجي بشكل سريع لإعطاء تأثير الحركة للصور المطبوعة عليه.

أنه لا يوجد شيء في العالم اسمه (ضوء أسود).. وذلك بسبب طبيعة الضوء نفسه*.. لكن ما أراه أمام عيني يخالف تلك الحقيقة العلمية البسيطة!!.. ما زلت أنظر إلى شاشة هاتفي بتوجس محاولا أن أفسر ما يحدث.. ترى.. هل (ناصر) يموت في هذه اللحظة؟!.. هذا ما طرأ في ذهني.. نعم.. يبدو لي وكأنني أوثق عبر الفيديو لحظة احتضاره؟!.. خاصة مع تشنجه الغريب!!.

هناك سؤال مخيف آخر أخشى أن أطرحه.. إلى درجة أن العرق راح يتصبب من جبيني فجأة من هول الفكرة!!.. هل الكاميرا توثق خروج روح (ناصر) من جسده؟!!.. أدرك جيدا

---

* حقيقة.. ولا بأس من تذكّر بعض المعلومات البديهية للضوء الذي نراه حولنا.. فهو ينقسم إلى 7 ألوان.. نطلق عليها اسم (ألوان الطيف).. وهي الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والأزرق الغامق والبنفجسي.. تضاف إليهم الأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية.. ورؤيتنا لأي جسم في الكون تعني أنه يعكس أحد هذه الألوان المرئية السبعة.. أي أننا لو رأينا جسما برتقالي اللون.. فهذا يعني أنه يمتص جميع الألوان سوى البرتقالي.. فهو يعكسه إلى عيوننا لنراه باللون البرتقالي.. والأمر يتشابه في حالة الأجسام الشفافة.. فالزجاج الأزرق مثلا يمتص جميع الألوان وينفذ منه اللون الأزرق فقط.. وهكذا.. أما الأجسام السوداء فهي تمتص جميع الألوان ولا تعكس أي منها.. بعكس الأجسام البيضاء التي لا تمتص أيا من ألوان الطيف.. بل تعكسها جميعها.. لأن اختلاط جميع الألوان ينتج اللون الأبيض.. وهذا الشرح المبسط يعني أنه من المستحيل تواجد ضوء أسود.. لأنه من المستحيل أن يسقط على عيوننا ضوء غير معكوس.. أو غير نافذ.

أن الروح أمر عقائدي ولا أريد العبث فيه.. لكني لا أستطيع أن أكذب عيني أيضا.. ثم لماذا أنا تحديدا من كشف أمرا خارقا مريبا كهذا؟!.. هل هي الصدفة التي جعلتني أقوم بتصوير (ناصر) لحظة احتضاره؟!!.. لا.. مستحيل.. فموقع (YouTube) يمتلىء بلقطات ومشاهد حقيقية لأناس لقوا حتفهم.. ولم يرَ أحد في تلك اللقطات ذلك الضوء الأسود الذي أراه الآن!!.

أنظر إلى وجه (ناصر).. إنه يريد اغتصاب صرخة يائسة وهو ينظر إلي.. إلى أن.. إلى أن نجح أخيرا!!.. صرخة مدوية شقت سكون الغرفة.. مما سبب لي إرباكا هائلا.. لأسير إلى الباب بسرعة وأصطدم بالممرضات اللاتي هرعن لمعرفة سبب صراخه.. فقلت بذعر وأنا أتجه إلى الخارج من دون النظر إليهن:

- لم أفعل شيئا.. لا أعرف ما جرى له.. لا أعرف ما جرى له!!.

أخرج من جناح المستشفى بخطوات سريعة أقرب إلى الركض.. ولم أشعر بشيء من الارتياح إلا حين نزلت إلى الدور الأرضي.. عقلي ما زال يطرح الأسئلة.. ما الذي حدث

بالضبط؟!.. هل كان (ناصر) يلفظ أنفاسه الأخيرة كما بدا لي؟!.. ولماذا كان غاضبا قبلها؟!.. أم أنه مجرد هذيان مريض؟!.. لا أعلم.. لا أستطيع أن أفكر في هذه اللحظة.. فقد أربكني كل ما رأيته.. يجب الهرب من هذه الفوضى أولا والعودة إلى شقتي.. سأفكر هناك بطريقة أفضل.

كنت في سيارة الأجرة كالعادة.. حيث ظللت طوال الطريق مشتت الذهن ألتفت حولي بتوتر متأثرا بما حدث للتو في المستشفى.. عاجزا عن مشاهدة المقطع بطريقة واضحة بسبب الشمس.. فما إن وصلت إلى شقتي.. حتى دخلت مسرعا ورميت حذائي جانبا.. ثم جلست متسمرا أمام شاشة هاتفي وقلبي يخفق بعنف.. وقد نسيت للحظة كل ما يتعلق بالمال والمصيبة التي ستقع لو أن (ناصر) توفي بالفعل!!.. أسمع صوتي خلف الكاميرا وأنا أطرح عليه السؤال وأحاول معرفة مكان المال.. ثم تأتي اللحظة التي يغمغم فيها بكلمات غير مفهومة.. أحاول أن أعيد التسجيل لأفهم ما يقول.. مستحيل تماما للأسف.. أكمل التسجيل لأرى مرة أخرى ما أثار ذعري.. اللحظة المرعبة.. حين يتشنج (ناصر).. ويتكون ضوء أسود ليخرج من جسده فجأة كما علمنا..

وبهدوء شديد.. كم استغرق هذا؟!.. دقائق قليلة.. ليطلق بعدها صرخته ويسبب كل هذا الارتباك.

مهلا.. هناك نقطة هامة يجب التأكد منها أولا.. رحت ألتقط فيديو عشوائي لشقتي بواسطة كاميرا هاتفي ذاتها.. ثم ألتقط فيديو لنفسي.. لا.. كل شيء يبدو طبيعيا للغاية.. لا يوجد أي خلل في الكاميرا إذا.. ما وثقته كان حقيقيا تماما!!!.. لقد التقطت عدسة كاميرا هاتفي -ولسبب غير مفهوم- شيئا تعجز عن التقاطه العين البشرية.. عقلي يبحث عن تفسير منطقي آخر -غير الروح- ولا يعثر على إجابة.. هل أستطيع القول أن ما رأيته هو ما يطلقون عليه اسم (الجبلة الخارجية)*؟!.. لقد شاهدت أحدهم يتحدث عن

---

* الجبلة الخارجية (Ectoplasm) مصطلح روحاني شهير ومثير للجدل.. أول من صاغه الباحث الفرنسي (تشارلز ريشيت) (Charles Richet) عام 1894.. والمصطلح مشتق من اللفظة الإغريقية (Ecto) وتعني (خارج).. و(Plasm) وتعني (الشيء الذي يتشكل).. والجبلة الخارجية -كما يدعي الروحانيون- عبارة عن كتلة دقيقة غير مرئية.. مضيئة بدرجة خافتة جدا.. توجد بشكل طبيعي في جسم الإنسان.. ويفترض أنها تستخرج من الفم.. أو الأذنين.. أو الأنف.. ويقول الباحث البريطاني (ويليام كروكس) (William Crookes) أنه حضر أكثر من 100 جلسة لاستخراج جبلة خارجية يزعم الروحانيون أنها أُخذت من جسده شخصيا.. ولكن كان يتضح دوما في النهاية أنها ليست سوى خدعة متقنة.. وقد تحدثت المجلة العلمية الشهيرة (Popular Science) في أحد أعدادها عن (الجبلة الخارجية).. ووصفتها بـ(الخدعة الكبرى).

شيء كهذا ذات مرة في التلفاز منذ سنوات طويلة.. إنني أجهل الكثير عن تلك الأمور الروحانية.. فكل لديه نظريته ولا تعرف أين الصدق.

جلست ألتقط أنفاسي.. أفكر بعمق بهذا الاكتشاف الغريب.. ما الذي سأستفيده منه؟!.. هل أحمله إلى الجهات المسؤولة؟!.. ما الهدف؟!.. ومن هي الجهات المسؤولة عن أمر كهذا؟!.. وكيف سأقنع أي مخلوق بما رأيته أصلا؟!.. فهذا الفيديو لن يعني لهم أي شيء.. سيظنون أن هناك تلاعبا في التصوير.. وأنه مجرد فيلم قمت بإعداده لجذب الانتباه.. دعكم من أنني لست متأكدا إن كانت الكاميرا ستوثق الشيء ذاته لو كررت التجربة وشهدت لحظة احتضار إنسان آخر أمام عيني كما حدث مع (ناصر).. هذا على اعتبار أن (ناصر) قد توفي بالفعل!!.. غريب حين يكتشف المرء فجأة شيئا خارج نطاق المألوف.. إذ ينسى كل مشاكله وهمومه.. ويبدأ يفكر بالوجود ويطرح الأسئلة الكونية التي لا نملك إجاباتها أبدا.. تماما كما يحدث حين تلتقي بمخلوق فضائي وجها لوجه على سبيل المثال.. لا أظن أنك ستفكر حينها بمشاكل الديون والقروض والالتزامات العائلية التي تثقل

كاهلك.. فأنت أمام حدث كوني أكبر بكثير من أي صراعات تافهة تعيشها في عالمك الصغير.

لكن.. الأغرب من ذلك أن كل هذه الاكتشافات الماورائية ستتلاشى أيضا بأسرع مما تتخيل.. فخلال الساعات التالية.. وبعد أجواء الرعب والصدمة التي عشتها.. نسيت كل ما يتعلق بذلك الضوء الأسود بالفعل.. وبدأت أتذكر أنني أمام مشكلة حقيقية لا أعرف كيف أحلها.. وأن مكان المال قد يظل لغزا للأبد!!.

يا إلهي.. لا أريد أن أسلك الطريق القديم ذاته.. لقد ساهمت بتدمير الكثير من الشباب والأسر بآفة المخدرات.. ثم أضعت سنوات طويلة من عمري في السجن.. أردد هذا بيني وبين نفسي وأنا أجلس في غرفتي وأهيم فيها بحثا عن حل.. رأسي لا يتوقف عن التفكير حتى بات التفكير نفسه حملا ثقيلا!!!.. أشاهد الفيديو -بيأس- مرة تلو الأخرى.. أحاول التقاط الكلمات التي كان يقولها (ناصر).. لكني لم أفهم شيئا مما يريد قوله.. و.. بعد أكثر من ساعة.. اتصلت في المستشفى للسؤال عن حالة (ناصر).. كنت أرغب بالتأكد من استنتاجي على الأقل.. لتبلغني الموظفة في إدارة

المستشفى أنه توفي منذ ساعات قليلة.. هذا ما توقعته!!.. لقد كنت محقا إذا.. يبدو أنني وثقت فعليا لحظة موته بكاميرا هاتفي.. وأن ذلك الضوء الأسود عبارة عن الجبلة الخارجية ربما.. أو روحه.. أو شيء آخر يرتبط بالموت ولم يتوصل إليه العلم بعد!!!.

لن أكذب لو قلت أنني حزنت كثيرا على وفاته.. فهو صديقي.. والإنسان الوحيد الذي أثق به.. وهو الذي كان بيده خلاصي.. حتى أنني ظللت مهموما يائسا ساعات طويلة.. بعد أن شعرت أن كل الأبواب سدت في وجهي إلى الأبد.. مما جعلني أفكر تلقائيا بـ(غادة).. إنها كل ما تبقى لي.. وتعرف أسراري.. ويمكنني أن أفضفض لها بما أشاء.. فاتصلت بها مباشرة.. وأخبرتها بصوت حزين أنني أرغب بزيارتها والتحدث إليها.. لحسن الحظ وافقت بسهولة.. ولم أكن لألومها لو رفضت كوننا نعيش في مجتمع شرقي له قواعده الصارمة.. إننا نتحدث عن زيارة رجل غريب لفتاة في شقتها.. فعلتها مرة وسمحت لي.. وكنت أخشى أنها لن تقبلها في المرة الثانية.

ذهبت لزيارتها والساعة تتجاوز السادسة مساء بقليل من

دون أن أكترث لو رآني أحدهم أمام باب شقتها.. فما إن دخلت وأغلقت الباب خلفي.. حتى انفجرت باكيا أمامها كالأطفال.. وبمنظر غريب لا يتناسب أبدا مع طبيعتي!!!.. بل وبدت الصدمة كبيرة على ملامح (غادة) التي لمست بنفسها صرامتي وحزمي أثناء تجارتي للمخدرات.. لكني لم أكترث لاستغرابها.. ولم أكترث لرجولتي.. فرحت أتحدث والدموع تنهمر من عيني عن موت (ناصر).. وعن حياتي التي دمرتها.. وعن عدم جدوى أي شيء بعد اليوم.. كما اعترفت لها بكل أخطائي السابقة.. وعما فعلته بأسرتي.. وتحدثت أيضا عن طفولتي التي ساهمَت كثيرا باتخاذ ذلك المنحى الأسود بعد حالات التحرش الجنسي التي تعرضت لها من قبل قريبي اللعين.. مما جعلني أكره العالم كله وأدرك مدى قسوته.. كنت بحاجة إلى الانهيار.. وقد وجدت الشخص المناسب لأنهار أمامه!!.

ويبدو أن كلماتي وبكائي وحالتي النفسية أثّروا بها.. فقد تعاطفت معي كثيرا.. وأمسكت بيدي وهي تنظر إلي بأسى.. ورأيت عبراتها تنزل تلقائيا بعد أن عزفت على وتر حساس للغاية لديها.. عندما تحدثت عن الوحدة القاتلة التي نعيشها.. لكنها حاولت أن تحتوي حزني بالحديث الذي نردده حين يموت أقاربنا أو حين نقع في خسارة مادية كبيرة..

عن استمرارية الحياة.. وأن هذه ليست النهاية.. وأنني رجل ذكي أستطيع النهوض من تلك الكبوات وأبدأ بتحقيق إنجازات مهمة تنسيني كل هذه الهزائم.. ومن هذا الكلام الذي لا يأتي غالبا بأي نتيجة.

وبعد قرابة نصف الساعة من جو العزاء هذا.. هدأت أعصابي قليلا.. وتغيرت دفة الحديث.. فأخبرت (غادة) بما حدث في المستشفى.. وأنني كنت موجودا لحظة وفاة (ناصر) رحمه الله.. كما أخبرتها عن الضوء الأسود الذي خرج من جسده لحظة وفاته.. وجعلتها تشاهد الفيديو بنفسها.. لأرى ملامح الذهول تظهر عليها سريعا.. ثم تلتفت لتقول بذعر:

- ما هذا بالضبط؟!.. هل عبثت بالفيديو؟!.. هل هذا (فوتوشوب) كما يقولون؟!.

قلت بهدوء وآثار البكاء ما تزال على ملامحي:

- ما ترينه حقيقي تماما.. أعلم أنني أتصرف ببساطة لا تتناسب مع ما يحدث في الفيديو.. ربما لأنني تجاوزت مرحلة الصدمة كون الحادثة جرت منذ ساعات.. صدقيني.. لقد كانت مشاعري حينها شبيهة بمشاعرك الآن!!.

بدا وكأنها لم تصدق عيناها.. فشاهدت الفيديو مرة أخرى وهي تسألني:

- هل الأمر مرتبط بالروح؟!.. هل كان يحتضر في تلك اللحظة؟!.



مططت شفتي لأقول:

- لقد طرحت ذات السؤال على نفسي لكني لم أعثر على إجابة له.. وسواء كانت هذه روحه أم لا.. أنا واثق أن هذا الضوء الأسود يرتبط بالموت بشكل أو بآخر.. لا يمكن أن تكون مجرد صدفة.. لقد كان يحتضر.. وهذا التصوير كشف لحظة احتضاره.. أما الذي يخرج من جسده.. فلا أعرف ماهيته بصراحة!!.. وهو -بالمناسبة- ينافي أبسط قواعد الفيزياء التي نعرفها.. لأنني أدرك جيدا أنه لا يوجد شيء اسمه (ضوء أسود).. هذا مستحيل علميا.. لكنه يحدث أمامنا على أرض الواقع.. فكيف نفسره؟!.

سألتني بشيء من الشك متجاهلة سؤالي:

- لماذا لا يكون التفسير بسيطا بعيدا عن هذه التعقيدات؟!.. لماذا لا يكون هذا مجرد خلل في الكاميرا؟!.

قلت بسرعة:

- لقد فكرت في ذلك.. وجربت كاميرا الهاتف على نفسي.. لكن لم يظهر فيها أي ضوء أسود حولي.

هزت رأسها باستغراب يشوبه الشك.. وكأن كل ما دار بيننا لم يكن مقنعا بالنسبة لها.. فطلبت مني أن تشاهد الفيديو للمرة الثالثة أو الرابعة (لا أذكر).. لأعطيها هاتفي بلا مبالاة.. ثم.. ألقت بقنبلة لم أتوقعها أبدا وهي تمعن النظر في الشاشة:

- مهلا.. ألم تلحظ هذا؟!.

نظرت إليها دون فهم.. لتنهض وتضع شاشة الهاتف أمام وجهي.. ثم تقول:

- دقق النظر جيدا في هذه الذرات الصغيرة.. إنها تدلك على الطريق الذي يسلكه هذا الضوء الأسود كما تطلق عليه.. لاحظ.. إنه يدخل جسد صديقك.. ولا يخرج منه كما كنت تظن!!.

أخذت منها الهاتف بسرعة.. وأعدت التسجيل لأشاهده بدقة أكثر.. إنها محقة!!.. كيف لم أنتبه؟!.. قلت لها برهبة

تشوبها الحيرة:

- هذا غير معقول!!.. في البداية ظننت أن روح (ناصر) كانت تخرج من جسده.. وإن حاولت أن أكذّب ذلك كون التفسير يصطدم صراحة بثوابت دينية.. لكن يبدو أن الأمر أكثر تعقيدا.. هذا الشيء يدخل جسده بالفعل.. ولا يخرج منه كما كنت أظن!!.

لم ترد على كلامي.. فقلت مغمغما:

- لكن.. ما هي طبيعة هذا الضوء الأسود.. ولماذا كاميرا هاتفي فقط التي التقطت شيئا كهذا؟!.. ماذا لو كان أي شخص آخر متواجدا لحظتها ويلفظ أنفاسه الأخيرة أيضا.. هل ستوثق حينها كاميرا هاتفي الضوء الأسود الخاص به؟!.

فاجأها السؤال.. فسكتت وهي تفكر بكلامي.. ثم هزت كتفيها وكأنها لا تملك ما تقوله.. أما أنا فرحت أنظر إليها طوال فترة سكوتها.. أعتقد أن حالة الحزن والخيبة التي أمر بها جعلتني أنظر إليها بطريقة مختلفة.. وأتأمل ملامحها جيدا.. إنها المرة الأولى التي أنتبه فيها أن (غادة) جميلة.. أدرك جيدا أن الجمال أحيانا رأي.. وأحيانا يكون حقيقة

واضحة كالشمس.. لكن (غادة) جميلة.. أقولها كحقيقة لا تقبل الجدل.. والغريب أنني وجدت نفسي أستسلم لملامحها الهادئة وشعرها المنسدل على كتفيها برقة.. خاصة وأنها تصغرني قرابة العقدين من الزمن.. كيف لم أحاول التقرب إليها في أيامي السوداء؟!.. ربما لأنني كنت حريصا دوما على استمرار العمل وجديته.. ولم أحب أن أمزجه بالمتعة كما يقول الأجانب.

لا أعرف كيف أو متى غيرت دفة الحديث فجأة.. وقلت ما لم أتوقعه أنا نفسي:

- (غادة).. هل تتزوجينني؟!.

اتسعت عيناها دهشة وهي تنظر إلي من دون أن ترد.. فقلت بصوت عقلاني:

- اسمعيني جيدا.. لست مراهقا.. إنني في مرحلة ناضجة من العمر.. لكني مجرم سابق وخريج سجون.. ولا أملك شيئا.. وحين أنظر حولي.. لا أجد أحدا سواك.. لقد دمرت حياتي بنفسي.. ولم يعد بالإمكان إصلاح أي شيء منها.. لذا علي البدء من جديد.. هذه حقيقتي باختصار.. تأكدي

أيضا أنني تغيرت عن الرجل الذي كنته في الماضي.. أشعر بهذا في قرارة نفسي.. صدقيني.

غمغمت بألم:

- لا تكن قاسيا على نفسك.. أنا أيضا فتاة سيئة ولا أملك شيئا.. نحن نتشابه كثيرا.

قلت مدافعا عنها:

- أبدا.. نحن لا نتشابه.. أنتِ مجرد ضحية زوج والدتك الذي أساء معاملتك كثيرا فاضطررت للهرب منه كما أخبرتني بنفسك.. وقد سلكتِ هذا الطريق بحثا عن المال بعد مرحلة مراهقة سوداء ضاع على إثرها مستقبلك.. أما أنا فاخترت طريقي بنفسي.. اخترت القسوة مع أسرتي.. اخترت دخولي عالم الاتجار بالمخدرات.. والآن ابنتاي وزوجتي السابقة يكرهونني كثيرا.. وأشقائي تبرؤوا مني منذ زمن.. ولو ذهبت لأحدهم لطردني.. إنني ميت بالنسبة للجميع.. لكن كل هذا لا يهم.. بإمكاننا أن نتزوج.. وأن نبدأ حياتنا من جديد.. قد أساعدك بمشروعك الصغير بعد أن فقدت الأمل تقريبا بالعثور على نصيبي

من المال.. نحن بحاجة إلى بعضنا يا عزيزتي.. فلا أظن أنك كنت سعيدة بالإقامة وحيدة طوال السنوات الماضية.

التزمت الصمت دون أن ترد.. ثم قالت مغمغمة:

- تريد أن تتزوجني؟!.. ماذا تعرف عني أصلا؟!.

قلت مباشرة:

- كل شيء!!.. أعرف أن الإنسان يفقد قيمته حين يعرفون الكثير عنه.. لكنك لم تفقدي قيمتك عندي أبدا رغم ذلك.

تفاجأت من عبارتي الأخيرة.. فقالت بعد تردد:

- إن مسألة تكوين أسرة تبدو لي من عالم الخيال.. فأنا فتاة غير محترمة ولا أشرف أي زوج.

قلت مدافعا عنها للمرة الثانية:

- ومن قال أنني أشرف الانتماء لأي أسرة؟!.. ومن قال أننا سنكوّن أسرة أصلا؟!.. بكل تأكيد لن نفكر بالإنجاب.. بل سنكون معا فحسب.. (غادة) عزيزتي.. أنا مجرد شخص تائه.. وأبحث عمن يتوه معي!!.

ابتسمت لكلامي.. فسكت قليلا منتظرا منها أن تقول شيئا.. لكنها التزمت الصمت بدورها.. عندها قلت باحترام:

- أعرف أن وقع المفاجأة كبيرا عليك.. لكني عموما أدعوك للتفكير بعرض الزواج هذا.. صدقيني ستجدين أنه أنسب الحلول.. وأرجوك أن تتذكري ما قلته.. أنا لا أبحث عن الإنجاب.. فلا يمكن أن أنجب أطفالا سيصدمون مستقبلا من حقيقة والديهما.. أمور كهذه لن تخفى عليهم حين يكبرون ويسألون عن أقاربهم وعن سبب انقطاعنا عنهم.. دعك من عجزنا عن إعالتهم.. إنني أبحث فقط عمن تعيش معي البقية الباقية من حياتي.. فما تزال لدي سنوات طويلة لأعيشها.. وأرغب بالاستقرار فيها بعد كل ما حدث.

ردت مغمغمة:

- امنحني بعض الوقت.. لا يمكن أن أوافق أو أرفض في دقائق قليلة.. الأمر يحتاج بعض التفكير.. إنه مشروع زواج في نهاية الأمر.. بغض النظر عن الوضع الاجتماعي لكل منا.

ابتسمت وأنا أنظر إليها.. شاعرا بحاجة ماسة لأنثى في حياتي.. ولا أظن أنني سأجد أفضل من (غادة).. و.. قطع تلك اللحظات الجميلة رنين الهاتف.. هل هذا هاتفي؟!.. نظرت إلى الشاشة غير مصدق!!.. لا أبالغ لو قلت أنها المرة الأولى التي يرن فيها جرس هاتفي منذ خروجي من السجن.. إنه.. إنه هاتف أرضي.. أجبت بارتياب وأنا أنظر إلى (غادة) مستغربا.. لأسمع صوتا أنثويا يلقي علي تحية سريعة.. ويطلب مني التواصل مع أقارب (ناصر) لإبلاغهم بوفاته!!.

إنها موظفة في إدارة المستشفى.. فقد تركت عندهم رقم هاتفي في زيارتي الأولى له -رحمه الله- على أمل أن تتحسن حالته ويقوم أحدهم بإبلاغي.. وليس مستغربا عدم توصلهم لأقاربه كما تقول الموظفة.. إنه أمر معتاد ومتوقع في عالمنا السفلي الذي يستحيل أن يدخله أحد ويحتفظ بعلاقاته الاجتماعية بنفس الوقت.

أخبرتها بصدق أنني لا أعرف أي أقارب لـ(ناصر).. فقالت بأسى:

- حاول أن تتواصل معهم.. فجثمانه سيخرج من المستشفى غدا متجها إلى مقبرة (الصليبخات) بإشراف البلدية كما

هي العادة.. من المؤلم ألا يكون أحد من أقاربه أو معارفه متواجدا هناك.

قلت بيأس:

- لا أعرف عنوانه للأسف.. ولست على تواصل مع أهله.

ردت ببساطة:

- نحن نعرف عنوانه.. فقد وصل إلى المستشفى في حالة خطرة دون وجود أي أوراق رسمية معه.. ولا حتى محفظته.. عندها اضطررنا للتواصل مع الشرطة لمعرفة هويته.. ليقوموا -مشكورين- بتحرياتهم ويتوصلوا إلى اسمه وعنوانه.

تحفزت حواسي فجأة!!.. إنهم يعرفون عنوانه إذا.. هذه معجزة وقد هبطت علي من السماء.. فأنا.. أنا أملك مفتاح شقته.. الموظفة تسألني بإصرار:

- أستاذ.. هل ستحاول التواصل مع أقاربه؟!.. فأنت الوحيد الذي كنت تزوره وتهتم لأمره.

نفضت خواطري من رأسي وأجبت بالإيجاب وأنا أطلب منها العنوان وأؤكد لها أنني سأبذل كل جهدي لإقناع أهله بحضور مراسم الدفن وإقامة العزاء.. قبل أن أنهي المكالمة والاهتمام باديا على ملامحي.. لدي شعور لا أفهمه بأنني سأعثر على المال هناك.. هل هو الحدس الإجرامي -إن كان هناك شيء كهذا- والذي ما زلت أمتلكه رغم ابتعادي عن عالم الجريمة؟!.. تسألني (غادة) مبتسمة:

- ما بك؟!.. تبدو غارقا في أفكارك؟!.. من المتصل؟!.

قلت باهتمام من دون أن أنظر إليها أو أجيب على سؤالها:

- (غادة).. يجب أن نذهب إلى منطقة (المنقف).. (ناصر) يسكن هناك.. لقد حصلت على عنوانه من المستشفى.

مطت شفتيها مستغربة وكأنها لا تفهم سبب لهفتي.. لأكمل موضحا:

- قد أعثر على نصيبي في شقته.. فـ(ناصر) -رحمه الله- لم يقض وقتا طويلا في المستشفى.. ربما أكثر من شهر بقليل.. يستحيل أن مالك العمارة قد اكتشف غيابه.. وأخذ حكما بالإخلاء في هذه الفترة القصيرة بسبب تأخره

في دفع الإيجار.. أمر كهذا يتطلب بضعة شهور.. أرجوك.. تعالي معي.

نظرت إلي بقلق وهي تقول:

- ستقتحم شقته؟!.. هذا مخالف للقانون.. إنك خرجت للتو ولا.....

قاطعتها مطمئنا:

- من تحدث عن اقتحام شقته؟!.. أنا أملك المفتاح.. فقد أخذته من أغراضه الشخصية حين زرته في المستشفى قبل وفاته.. لم أجد ضررا في ذلك.

سألتني بتردد:

- وماذا عن الشرطة؟!.

قلت محاولا إقناعها:

- ماذا عنهم؟!.. ما تعرض له صديقي مجرد حادث مروري أدى إلى وفاته.. الشرطة بعيدة تماما الآن عن كل ما يحدث.

سكتت قليلا وهي تفكر بكلامي.. ثم هزت رأسها موافقة.. قبل أن تستأذنني.. وتذهب إلى غرفتها حيث غابت بضع دقائق.. لتعود إلى الصالة مرتدية بنطلون جينز وفانلّة رياضية منحتها بساطة محببة.. فخرجنا معا من دون أي حذر من الجيران.. وكأن (غادة) لم تعد تكترث لهم بالفعل.. أما أنا.. فبوادر الأمل كانت واضحة على ملامحي.. هذه فرصتي الأخيرة لتغيير حياتي بأكملها.. وسيكون مؤلما أن تضيع وأن أبدأ من الصفر.. فالبداية من الصفر تعني العمل مع (غادة) -حتى لو لم أرتبط بها- لمساعدتها في مشروعها الصغير كما زعمت منذ قليل.. والواقع أن هذه البداية ستكون من تحت الصفر!!.. أخشى أن يكون هذا مصيري لو عجزت عن العثور على المال.. كوني لا أجيد أي حرفة ولا أملك أي مهارات أو سجلا مشرفا.. ولا حتى شهادة للتقدم لأي وظيفة.

كانت (غادة) تقود السيارة.. في حين جلست بجانبها صامتا مفكرا.. لماذا لا أقود أنا؟!.. لأن رخصة قيادتي انتهت صلاحيتها أثناء وجودي في السجن.. ولا أريد أن أقع في أي متاعب مع الشرطة حاليا.. حتى لو من أجل مخالفة مرورية.

التفتُ إليها وقلت مبتسما لأكسر حاجز الصمت:

- إنها المرة الأولى التي أراك فيها خارج شقتك.. من الرائع أن تخرجي قليلا.. ثم أنني.. احم.. لا أمتلك سيارة.. فشكرا على مساعدتي.

لم تعلق على كلامي.. بل ظلت تقود بصمت متجهة إلى شقة (ناصر) معتمدة على توجيهاتي.. الأجواء متوترة بعض الشيء من دون سبب واضح.. كل منا غارق في أفكاره وخواطره.. أحاول أن أفكر بالقادم.. فهو أهم بكثير من ماضيي وأحزاني.. ألتفت لأرى (غادة) متجهمة وتنظر إلى الشارع بشرود أثناء قيادتها للسيارة.. أضع يدي على كتفها وأسألها إن كانت بخير.. لترد بشيء من الحدة:

- أي خير الذي تتحدث عنه؟!.. هل ترى حياتنا طبيعية؟!.. نحن مجرمان.. وسنظل في أعين الجميع مجرمان مهما حاولنا البدء من جديد.. لهذا نبذَنا المجتمع.. لا أصدقاء ولا أقارب.

أعرف ما تشعر به جيدا.. هذه واحدة من لحظات اليأس التي تصيبني أنا أيضا أحيانا.. فحاولت احتَواءَها بكلمات مشجعة لم تأتِ بنتيجة كما هو واضح.. ثم.. سألتني مغمغمة:

- لقد وصلنا.. إننا في الشارع المطلوب.. في أي عمارة تحديدا تقع شقة صديقك؟!.

نظرت بدقة إلى العمارات المتراصة على جانبي الشارع محاولا تحديد العنوان الصحيح.. ثم أشرت إلى عمارة محددة.. فاتجهت إليها مباشرة وهي تسألني بشيء من القلق:

- ماذا لو كان أحدهم في شقته؟!.. ربما كان متزوجا مثلا!!.

قلت بثقة:

- لا أظن.. لا تنسي أن أحدا لم يسأل عنه طوال فترة وجوده في المستشفى.

يبدو أنها اطمأنت لكلامي.. خاصة حين ذكّرتها بأنها ليست مضطرة للدخول معي إلى شقة (ناصر).. فقد بدا عليها بعض الارتياح وهي تقف بسيارتها أمام تلك العمارة الأنيقة.. حيث تركتها لأدخل ساحة العمارة الداخلية.. وأقف قليلا ألتقط نفسا عميقا محاولا أن أتمالك أعصابي أمام الخطوة القادمة.. أنا لا أعرف رقم الشقة.. فموظفة المستشفى لم تكن تعرف سوى عنوان العمارة فقط.. لذا ذهبت إلى البواب.. وأخبرته أنني صديق (ناصر) وأنه في المستشفى حاليا.. وبحالة خطرة!!..

لماذا أخفيت عنه خبر الوفاة؟!.. أنا نفسي لم أفهم السبب.

ثم أخبرته أنني أتيت لأخذ بعض احتياجات (ناصر).. لكني لا أعرف مكان شقته كوني لم أزره من قبل.. فنظر إلي بارتياب.. وقال:

- أتمنى له الشفاء.. إنه في الدور السادس.. شقة رقم 22.. لكن.. كيف ستدخل؟!.

أظهرت المفتاح أمامه مبينا له أنني حصلت عليه من شقيقة (ناصر) التي لم تتمكن من الحضور بنفسها.. وهذا كله كذب بالطبع.. فهز كتفيه بما يوحي أن الأمر لا يعنيه.. ثم قال فجأة بحرج:

- لكن.. ماذا عن الإيجار؟!.. لقد تأخر كثيرا.. بل أن موعد الإيجار الثاني اقترب.. المعذرة.. لقد استلمت وظيفتي للتو.. ولا أريد أن أبدو مقصرا أمام مالك العمارة.. فهو لن ينتظر أكثر.. وإنني.....

لم أستمع إلى بقية كلامه.. فقلت وأنا أبتعد مسرعا:

- سأبلغ أقاربه بكل تأكيد.

إنه لم يتحدث عن وجود زوجة لـ(ناصر) أو أي أحد في الشقة.. هذا يؤكد توقعاتي.. أقول هذا لنفسي وأنا أصعد الدور السادس.. أنفاسي لا تعينني.. إن لياقتي ليست على ما يرام.. ربما بسبب عامل السن وكثرة الجلوس والتدخين.

أصل أخيرا إلى الشقة المطلوبة لأرى ذلك الإنذار الملصق على الباب والذي يطالب (ناصر) بدفع الإيجار المتأخر فورا.. فأطرق الباب للمزيد من التأكد أن الشقة خالية.. أنتظر قليلا.. لا أحد يرد.. عندها فقط أدخلت المفتاح في القفل.. ليدور بسهولة.. ويفتح الباب!!.

أدخل الشقة بشيء من التوتر.. إنها صغيرة.. من غرفة واحدة وصالة.. أثاثها أنيق إلى حد ما.. لقد كان -رحمه الله- يتعمد أن يعيش بشيء من التقشف كحال من يحصل على المال بطريقة غير قانونية ويخشى لفت الأنظار.. يجب أن أفتش الشقة شبرا شبرا.. هذه القصص تتكرر كثيرا.. مال مفقود.. والوحيد الذي يعرف مكانه مصاب أو ميت.. إنها شبيهة بالقصص التي يقول فيها الأب لأبنائه: ((لقد تركت لكم ثروة ضخمة في.. في....)).. ثم يموت قبل أن يكمل عبارته.. لتبدأ بعدها رحلة البحث عن تلك الثروة.. الأمر لا يختلف كثيرا هنا.

غريب أنني مصر على أن المال ما زال موجودا بحوزة (ناصر).. وفي هذه الشقة تحديدا.. ما سر هذه الثقة يا ترى؟!.. هل لأنني ما زلت أمتلك تلك الحاسة التي اكتسبتها من خلال حذري الزائد قبل أن يتم إلقاء القبض علي؟!.. أم.. لأننا كنا نفكر كثيرا بأفضل الأماكن لإخفاء المال الذي يحصل عليه المرء بصورة غير قانونية.. وكنت أصر دوما أن البيت أفضل مكانا لذلك؟!!.. فالمال حينها سيكون تحت أنظارك طوال الوقت وإن كان هذا بمنتهى الخطورة لو وقعت في يد الشرطة.. المهم الآن البحث فحسب.. وسنعرف إن كان حدسي صحيحا.. هناك طبقة خفيفة من الأتربة تغطي الأثاث.. هذا طبيعي كوننا نتحدث عن مكان لم يقم أحد بتنظيفه منذ أكثر من شهر.. حسنا.. يفترض ألا يستغرق التفتيش وقتا طويلا.. فالشقة صغيرة كما ذكرت.

أبحث في كل مكان بدقة.. فتلمح عيناي بقايا التفاحة التي وضعت بإهمال على (الكومودينو) في غرفة النوم.. لقد تعفنت كثيرا حتى بات منظرها بشعا.. هذا طبيعي.. ولا ننسى الحشرات التي أراها هنا وهناك.. لكن تلك الأشياء آخر ما يخيفني أو يثير اشمئزازي في الوقت الحالي.. ما زلت

أبحث من دون جدوى.. إلى أن مرت ساعة كاملة.. (غادة) تتصل لتطمئن علي.. فأطلب منها برجاء أن تنتظر قليلا.. ثم أنهي المكالمة وأستمر في البحث وبكل الأماكن المألوفة.. كأسفل السرير والدولاب.. وكل ما يخطر ببال.. أتوقف قليلا.. وأحاول استغلال خبرتي الإجرامية وأسأل نفسي.. لو كنت مكان (ناصر).. أين سأخبئ المال؟!!.. ثم.. توقف بصري فجأة عند نقطة صغيرة.. لأتساءل بصوت مرتفع:

- ترى.. هل أخذت بنصيحتي يا صديقي؟!.

أقول هذا وأنا أتجه إلى قابس الكهرباء عند جهاز التلفاز.. أضربه بيدي.. لا.. أذهب إلى قابس كهرباء آخر.. وآخر.. إلى أن وصلت إلى غرفة النوم.. هناك قابس كهرباء أوصل إليه (ناصر) سلك مصباح نوم صغير.. المصباح لا يعمل.. فأقوم بتحريك (الكومودينو) بلهفة.. آمل أن أكون محقا.. أضرب القابس بأصبعي لأتأكد.. نعم.. هناك فراغ في الجدار.. إذا لا توجد وصلة كهربائية هنا.. لقد صنع (ناصر) فتحة صغيرة في الجدار ووضع عليها مادة الجبس ليخفيها.. إنها خزنة صنعت بطريقة بدائية!!.

أضرب الحائط بقبضتي بقوة.. مرة.. مرتين.. إلى أن انكسر أخيرا.. لأرى منظرا يفوق كل ما رأيته في حياتي جمالا وروعة!!.. كيسا بلاستيكيا كبيرا يمتلئ بالمال.. سحبته وأنا ألهث من فرط الانفعال والحماس.. أنظر إلى الكيس وعيناي تمتلئان سريعا بدموع الفرح.. هذا المبلغ يزيد عن حصتي بكثير!!!.. ربما هو معظم ما كسبه (ناصر) من تجارة المخدرات.. أبتسم حين أتذكر سخرية الأقدار أن صديقي هذا عاش بحذر من الشرطة لسنوات.. ثم انتهى به الأمر بحادث سير أودى بحياته من دون أن يجد الوقت ليستمتع بكل ما جَمَعه.. وأن ينتقل المبلغ بأكمله إلى الشخص الذي وقع في قبضة العدالة.. فلتذهب تلك الخواطر إلى الجحيم.. الآن فقط أستطيع أن أقول أنني قمت بتأمين مستقبلي إلى يوم وفاتي.

ولأول مرة في حياتي.. تخرج مني -لا شعوريا- ابتسامة عريضة صافية.. وأنتبه أثناءها أنني لم أبتسم بهذه الصورة منذ مدة طويلة جدا.. لقد كنت أسعى للحصول على نصيبي فقط.. وظننت في لحظة من اللحظات أن هذا مستحيلا بعد وفاة (ناصر) -رحمه الله- ثم فجأة أحصل على نصيبي

ونصيبه معا.. قلبي يتراقص طربا وأنا أتخيل ما سأفعله بهذا المبلغ.. ستكون عملية ترميم شاملة لحياتي.. شراء سيارة.. سكن جديد فاخر.. السفر وقضاء أوقات طويلة في الخارج مستمتعا بكل لحظة منها.. وسأعرض على (غادة) الزواج مرة أخرى.. قد يغريها المال وتوافق.. أو ربما توافق لأنها تشعر ببعض الود تجاهي.. في كل الأحوال.. إقناعها الآن بات سهلا بعد تأمين المستقبل.. فالارتباط بأنثى أصبح أمرا حتميا بالنسبة لي وأنا في هذه السن.

أخرجت هاتفي.. واتصلت بـ(غادة) لأخبرها أن كل شيء على ما يرام.. وأنني سأخرج بعد دقائق.. حاولت أن تفهم المزيد وهي تكاد تموت قلقا ولهفة لمعرفة ما آلت إليه الأمور.. إلا أنني طمأنتها بصوت هادئ أنني بخير وأن عليها الصبر قليلا.. رغم أنني كنت أحترق شوقا بدوري للنزول إليها وإبلاغها بكل التفاصيل.. هناك مشاعر فرح كثيرة أرغب بإخراجها إلى السطح.. وأحتاج من يشاركني بها.. فحتى الفرحة تحتاج فضفضة أحيانا.. لكن.. لا بد أولا أن أخرج بهذه الثروة دون لفت انتباه أحد.

أبحث بسرعة.. لأعثر على حقيبة سفر صغيرة الحجم نسبيا..

فوضعت فيها رزم المال التي تكدست فوق بعضها.. حتى أنني أغلقت الحقيبة بصعوبة بالغة.. لا يمكن أن يقل هذا المبلغ عن مليوني دينار!!.. إنه يتجاوز ما كنت أبحث عنه.. يتجاوزه بكثير.. أنا اليوم أسعد البشر حظا.

و.. قبل أن أخرج بقليل.. لمحت ذلك الشيء فجأة!!.. فتوقفت لحظات طويلة وقد هدأت أنفاسي بسرعة وأنا أتأمله بصمت.. كيف لم أنتبه له رغم أنني فتشت كل ركن من الشقة؟!.. يبدو أن ذهني كان منشغلا حينها بأمر المال فقط.. لكني استعدت تركيزي الآن.. أتحدث عن هذه النبتة!!!.. إنها نبتة صغيرة عبارة عن زهرة بيضاء تم وضعها بعناية في حوض صغير يمكنك أن تمسكه براحة يدك.. هذه النبتة نادرة جدا.. وتذكرني بواقعة سوداء لم يعد يعرفها سواي بعد وفاة (ناصر) رحمه الله.

فقبل دخولي السجن.. كنا -(ناصر) وأنا- نتعامل مع تاجر مخدرات آخر غريب الأطوار.. نشتري منه (البضاعة) إذا نفد المخزون.. ويشتري هو منا أحيانا بالمقابل.. وقد رأينا هذه النبتة ذات يوم في شقته.. حيث أخبرنا -بفخر- أنها نبتة قديمة تاريخية.. بل وأقدم من التاريخ نفسه على حد

قوله!!!.. إذ يعود عمر بذرتها لآلاف السنين*.. ولا يمتلك مثلها في العالم سواه مع قلة قليلة من الأثرياء لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة.

في البداية ظننت أن ما يقوله هراء.. وسخرت منه.. لكنه ظل يقسم ويؤكد أن ما قاله صحيح.. ومن باب التحدي والتباهي.. بحث أمامنا في (الانترنت) عن كل ما يتعلق بهذه النبتة.. ثم وضع صورتها ومعلومات كاملة عنها أمام وجهي.. فقط ليبين لنا صدق كلامه.. بالطبع سألته بفضول وذهول شديدين عن كيفية حصوله عليها.. فاكتفى بالقول أنها هدية من شريكه وصديقه بنفس الوقت.. وهو رجل أعمال معروف بالمناسبة.. يلجأ دوما لغسيل الأموال التي يجنيها من تجارة المخدرات مستفيدا من علاقاته القوية في البلد.

أتذكر أننا تشاجرنا مع ذلك التاجر في شقته بعدها ببضعة شهور لسبب يتعلق برداءة نوع المخدرات التي اشتريناها

---

* توجد بالفعل نبتة كهذه.. فقد أعلن مجموعة من العلماء الروس منذ سنوات قليلة وعبر مجلة (ديسكفري) (Discovery) الشهيرة أنهم تمكنوا من استنبات بذور لنبتة انقرضت قبل حوالي 32 ألف عام.. فقد عثروا عليها متجمدة في (سيبيريا) على عمق 38 مترا تحت سطح الأرض.. فأعادوا تدفئتها وزراعتها تحت ظروف مناخها القديم.. إلى أن أنبتت!!.. لتظهر منها زهور بيضاء جميلة صغيرة الحجم.. وتصبح بذلك أكبر الكائنات الحية سنا على وجه الأرض.

منه.. فقام بالتهجم علينا بألفاظ بذيئة.. ليفقد (ناصر) أعصابه.. ويبدأ تشابك الأيدي!!!.. كان من المستحيل أن أترك هذا الأمر يحدث أمامي ولا أتدخل.. خاصة مع البنية الجسمانية القوية للتاجر.. فتدخلت بالشجار الذي تحول إلى التحام عنيف.. مما جعلنا -للأسف- نقتل التاجر من دون قصد!!.. أتذكر أنني لم تهتز لي شعرة يومها.. رغم أنها جريمة القتل الأولى -والوحيدة- التي ارتكبتها في حياتي.. لحسن الحظ أن الشرطة لم تربط أبدا بيني -و(ناصر)- وبين هذه الجريمة.. فلم يتوصلوا أبدا لمرتكبها.. لتُقّيد ضد مجهول.. يا لها من أيام أكره حتى أن أتذكرها!!.

المهم أننا رحنا يومها ننهب كل الأموال التي عثرنا عليها في الشقة.. وجثة ذلك التاجر ملقاة في غرفة المعيشة غارقة في الدماء.. لتقع عين (ناصر) على النبتة ذاتها موجودة على منضدة أنيقة في أحد أركان الشقة.. فأخبرني أنه سيأخذها ليضعها في شقته.. إنها صيد ثمين وقد تساوي الكثير حسب كلامه.. أستغرب أنها لم تمت رغم أن (ناصر) توقف عن سقيها منذ أكثر من شهر بطبيعة الحال.. أو.. ربما لا تحتاج إلى الماء كثيرا!!.. أتذكر أن والدتي -رحمها الله- كانت تحتفظ

بنبتة لا تحتاج الماء إلا على فترات متقطعة*.. ذهبت تلقائيا إلى النبتة.. وأخذتها معي تلقائيا من دون سبب مفهوم.. لأخرج من الشقة وأنا أسحب الحقيبة بيد.. وأحمل النبتة بيدي الأخرى!!.

كنت في حالة مرح لا توصف وأنا مع (غادة) في السيارة.. خاصة وأن المال جاء هذه المرة وأنا أشعر بالأمان بعد أن دفعت جزائي للقانون وأنهيت عقوبتي في السجن.. على عكس الأيام السوداء التي سبقت القبض علي.. فرغم المال الذي كنت أنعم به آنذاك.. إلا أنني كنت قلقا طوال الوقت.. أنام بنصف عين وأراقب كل خطواتي خوفا من الشرطة.. لهذا مشاعري تختلف كثيرا الآن.. وكأنني ولدت من جديد!!.

أتحدث مع (غادة) بحماس.. وأخبرها أن علي أولا الانتظار بضعة شهور.. أو ربما سنة كي لا ألفت الانتباه.. ثم أبدأ بالاستفادة من هذا المال تدريجيا.. مع الوعود بأنني سأكون عونا لها إذا احتاجت لأي شيء.. وأنني.. أحبها!!.. أخبرت (غادة) صراحة بذلك.. أما هي.. فقد ظلت تنظر إلي

---

* حقيقة.. فهناك نباتات كثيرة تتحمل الحياة بدون ماء لفترات طويلة.. منها شجرة الزيتون والصبّار.

مبتسمة.. ممتنة.. وبدا لي وكأنها لا تمانع الزواج.. إنني أرى هذا بابتسامتها.. هل الأمر يتعلق بالمال الذي عثرت عليه؟!.. إنه عامل مساعد بكل تأكيد.. ولا ألومها إن كانت تفكر بهذه الطريقة.. لقد تحولت إلى صمام أمان في حياتها.

وقد سألتني بالطبع عن النبتة التي جلبتها معي.. فاضطررت للكذب عليها.. وقلت أنها أعجبتني وأخذتها!!.. هكذا ببساطة رغم عدم اقتناعها بإجابتي.. لم أشأ قول الحقيقة.. يفضل أن يدفن السر في صدري إلى الأبد بعد وفاة (ناصر) الذي شاركني تلك الأحداث.

عدنا بعدها إلى شقة (غادة) حيث سمحت لي بالدخول.. وذهبَت لجلب الشاي.. في حين اتصلت بدوري بأحد المطاعم لأطلب شيئا نأكله.. ثم أخرجت من الحقيبة رزمة كبيرة من المال.. مبلغا يتجاوز الـ 10 آلاف دينار منحته لـ(غادة) حال عودتها من المطبخ وهي تمسك بصينية الشاي.. كان هذا نوعا من الامتنان على وجودها في حياتي على الأقل.. وهي رسالة واضحة وصريحة مني أنها ليست مجبرة على قبول عرض الزواج كي تعيش بأمان مادي.

لا داعي للحديث عن فرحتها وامتنانها.. فهذا أمر مفروغ منه.. كل ما أستطيع قوله عن تلك الليلة أننا ضحكنا كثيرا وتحدثنا أكثر.. وتناولنا العشاء وقضينا وقتا رائعا بحق.. ليسود المكان بعد ذلك صمتا تشوبه روح التفاؤل.. ثم.. راح كل منا ينظر في اتجاه.. ليشرد ذهني وأنا أفكر بسنوات السجن.. أسرتي.. سنوات عمري السابقة التي ضاعت هباء.. فأحاول أن أطرد كل هذه الأفكار السلبية من ذهني.. وأتذكر أن حياتي تغيرت الآن.. و.. (غادة) تسألني فجأة مبتسمة:

- حاليا أنا أملك المزاج الرائق لأسأل.. ما سر ذلك الضوء الأسود يا ترى؟!.

سكتُّ في حيرة من دون أن أعقب.. لترد مغمغمة:

- يبدو أننا وقعنا على سر كوني هائل.. لأنني لم أقرأ أو أسمع عن شيء كهذا من قبل.

قلت مبتسما بدوري وبشيء من اللامبالاة:

- لا يوجد ما نستطيع فعله.

ثم.. تنحنحت والتقطت نفسا عميقا لأغير دفة الحديث

وأجدد طلبي بالزواج منها.. مؤكدا لها أن في زواجنا مصلحة كبيرة لنا.. وهو زواج ناجح بكل المقاييس كوننا نتشابه في أمور كثيرة شرحتها سابقا.. مع التطور المهم في الأحداث بعد أن أصبح لدينا ما يكفينا من مال مدى الحياة.. فتنظر إلي (غادة).. وتقول بتردد:

- كل ما فعلته معي يوحي أنك محل ثقة.. لكن.. أخبرني بكل صراحة أرجوك.. هل هناك ما تخفيه عني؟!.. يجب أن أعرف عنك كل شيء.

قلت وأنا أنظر إلى عينيها مباشرة لأعطيها الانطباع أن لا يوجد لدي ما أخفيه:

- (غادة) عزيزتي.. ما الذي سأخفيه؟!.. أنت تعرفين تاريخي كله.. ولا توجد أي مصلحة لي في الارتباط بك سوى رغبتي أن أكون بالقرب منك.. بهذا المال لن أحتاج أحدا.. لكني أريد أن أكون معك.. ولن أبالغ لو قلت أنني أحببتك.. أدرك جيدا فارق السن بيننا.. لكنك في النهاية تريدين زوجا يحبك.. بغض النظر عن عمره.. إنني ذلك الزوج.. صدقيني.

نظرت إلي بابتسامة صغيرة.. سرعان ما اتسعت.. لتوافق أخيرا بعد أن رأت أن كلامي منطقي.. فتهللت أساريري.. وأمسكت بيدها وأنا أعدها أنني سأهتم بها كثيرا ولن أكرر معها الأخطاء التي ارتكبتها بحق زوجتي السابقة.. وأنها لن تندم أبدا على موافقتها.. لأتركها بعد أن تأخر الوقت.. وأعود إلى شقتي حيث قضيت أجمل ليلة في حياتي.. مترقبا الأيام الجميلة القادمة.. شاعرا أنني ولدت من جديد.

لم يكن عقد القران يسيرا.. إننا نتحدث عن إتمام إجراءات الزواج بغياب الأقارب والأهل.. لذا بذلت جهدا كبيرا للبحث عن قريب لها كي أخبره بأمر زواجي منها وأطلب مساعدته لإتمام الإجراءات.. ولم يخف علي اشمئزازه من الأمر بأكمله بالطبع.. فسمعة (غادة) ليست جيدة عند أقاربها كما علمنا.. وجميعهم يرونها وصمة عار.. من دون أن يتساءل أي منهم عن الصعوبات والمشاكل التي عانتها في حياتها لتصل إلى ما وصلت إليه.. هذا لا يهمني الآن.. المهم أن يتم الزواج على خير.. وليذهبوا بعدها جميعا إلى الجحيم.. إنه إجراء شكلي لكنه ضروري للغاية حسب القانون.

في النهاية.. تم عقد القران في شقة (غادة).. وبحضور شاهدين.. أحدهما جلبه المأذون بنفسه.. والآخر قريب (غادة) الذي أدى دوره وخرج مسرعا من دون أن يقول حتى كلمة (مبروك)!!.. لتبدأ مرحلة بناء حياتي من جديد.. فخرجت من شقتي المشبوهة.. وانتقلت للسكن في شقة (غادة) مؤقتا.. على أن نبدأ بتغييراتنا الجذرية بعد شهور قليلة من الآن كما خططنا.. يجب عدم الاستعجال.. فلكل شيء وقته.. لا أريد أن تظهر علي بوادر الانتعاش المادي بسرعة.. حذر زائد لا معنى له؟!.. قد يكون كذلك.. لكنه أفضل من الندم فيما بعد.

أما بخصوص المال.. فقد وضعته مؤقتا في حقيبة تحت السرير وكنت آخذ منه ما يلزمني فقط.. على أن أشتري له خزنة حديدية قريبا.. ما أدراني أن (غادة) لن تسرقني خلال هذه الفترة؟!.. لأنني على يقين أنها بحاجة لأحد في حياتها.. وهذا الأحد سيكون (أنا) طوال العمر.. ولأنني اقترحت عليها بنفسي أن تأخذ جزءا ليس بالقليل من المبلغ.. لكنها أخبرتني صراحة أنها تثق بي.. خاصة وأنني طلبت منها الزواج بعد عثوري على المال.. وهذا بحد ذاته يجعلها مطمئنة أنها بأمان معي.

وبالطبع.. فإن كل حياة تملك فيها المال وتخلو من المسؤوليات تكون هادئة جميلة في بدايتها.. ولا أبالغ لو قلت أنني شعرت بالاستقرار لأول مرة.. بعد أن أدركت في قرارة نفسي أنني أحببت (غادة) بالفعل.. أقولها وأنا في سن النضج الذي تفهم خلاله معنى الحب والاستقرار جيدا.. على عكس الذين يتزوجون وهم في العشرينيات من العمر.. لذا كان تقاربنا شديدا في بادئ الأمر.. وبدأنا نتصرف كأي زوجين طبيعيين في العالم.. فنذهب إلى دور السينما.. والمجمعات التجارية.. والمطاعم.. من دون أن يعرف أحد تاريخنا المظلم.. إذ كنا نحافظ على سرية حياتنا جيدا ونتجنب المتطفلين.

حتى الجيران الذين لاحظ بعضهم وجود رجل في حياة (غادة).. وكانوا يلقون التحية حين يرونني خارجا ويحاولون فتح المجال للحديث.. ظللت أكتفي بردود أفعال مقتضبة تجاههم.. وأتجنب الاستطراد رغم كثرة أسئلتهم.. أي أنني كنت أبعدهم عني بكل حزم وهدوء.. لأنني واثق أنه كلما قل البشر من حولك.. زادت حريتك.. إلى أن شعروا مع مرور الوقت أن زوج (غادة) لا يختلف عنها.. وأننا لا نرغب بالاختلاط بأحد.. فابتعدوا عنا وانشغل كل منهم بحياته الخاصة.

وقد يتساءل البعض عن ابنتيّ.. في الواقع أنني فكرت بزيارتهما ذات مرة.. لكني في النهاية فضلت الابتعاد والبقاء بعيدا.. بعد أن بدت لي حياتهما مستقرة.. ولا أعتقد أن وجود شخص مثلي سيفيدهما كثيرا.. حتى لو كان هذا الشخص والدهما.. لكني قمت بآخر واجباتي كأب.. حين ذهبت إلى شقتهما مساء ذات يوم.. ووضعت صندوقا متوسط الحجم عند عتبة الباب وضربت الجرس.. ثم نزلت من درجات السلم بسرعة هاربا.. ماذا يوجد بالصندوق؟!.. قرابة الـ100 ألف دينار.. مبلغ كبير سيساعد ابنتيّ ووالدتهما كثيرا.. وهو أقل تعويض أقدمه لهن بعد سنوات من العذاب.

سيتساءلن عن مصدر المبلغ من دون شك.. وربما تتمكن ابنتاي من الوصول إلي لسؤالي عنه.. لكني سأنكر معرفتي بالأمر.. فلا أظن أنهما ستقبلان به إذا علمتا بالحقيقة.. إنه مال حرام.. مال مشبوه كسبْته على أكتاف أسر تدمرت بسببي.. وهذه أسباب كافية لرفضه.. ولا أنكر مخاوفي من أن تذهب خدمتي هذه سدى إذا قررتا الذهاب بهذا المال إلى الشرطة كونهما لا يعرفان مصدره.. فقد يربطه رجال الشرطة بخروجي من السجن مؤخرا.. مما سيجرني بالتبعية

إلى التحقيقات.. احتمال وارد لكنه لم يجعلني أتراجع عن تلك الخطوة.. آملا أن تمر على خير.

المهم أنني قررت إغلاق صفحة ابنتيّ ووالدتهما من حياتي تماما.. فيجب أن نرحل دوما حين نشعر أن لا مكان لنا بينهم.. لقد فات الأوان على إصلاح ما فات.. مؤلم أن تعطينا الحياة حق الاختيار ونحن في عمر الطيش ثم تسلبه منا في فترة النضج.. علي أن أتعايش مع هذه الحقيقة.

كم مر على زواجي من (غادة)؟!.. أكثر من شهرين.. وكم مر على حياتي منذ خروجي من السجن؟!.. حوالي 4 شهور حدثت فيها كل هذه التغييرات الهائلة.. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي انتقلت فيه قصتي إلى منحى آخر جديد.. قد يكون الأهم على الإطلاق!!.

فقد استيقظت في تلك الليلة.. وفي وقت متأخر بسبب كابوس اختلطت فيه الأحداث كما يحدث عادة في الأحلام.. لأظل بعدها أتقلب في فراشي محاولا العودة إلى النوم ولكن من دون جدوى.. ألتفت إلى (غادة) فأجدها ساكنة غارقة في عالمها الخاص.. ثم.. قررت الخروج إلى صالة الشقة.. حيث

كانت الساعة تتجاوز الثالثة فجرا.. وهي ساعة الذئب كما أُطلق عليها في أحد الأفلام*.

أجلس في الصالة الصغيرة وحيدا حزينا شارد الذهن.. يبدو أن الشخصية الدرامية التي نتحول إليها في المساء هي حقيقتنا بعيدا عن صراعات الحياة!!.. أشعل سيجارة.. لحسن الحظ أن (غادة) لا تمانع التدخين.. أسحب الدخان إلى رئتي.. وأنفثه بهدوء وأنا أحدق في الفراغ متأملا.. قبل أن يقع بصري على طبق وضعت عليه (غادة) بعض البرتقال.. أحيانا في أوقات الفراغ تطرأ في ذهني تساؤلات غريبة..

---

* يتحدث هنا عن فيلم الرعب السويدي الشهير (ساعة الذئب) (Hour of the Wolf) للمخرج (انجمار بيرجمان) (Ingmar Bergman) والفيلم من إنتاج عام 1968.. ويعد أهم أفلام الرعب في تاريخ السينما على الإطلاق.. بناء على استفتاء أجرته جمعية الأفلام البريطانية عام 2012.. وقد تحدث مخرج الفيلم عن سبب اختياره لهذا الاسم.. حين قال عبارته الشهيرة الخالدة: ((ساعة الذئب تشير للوقت بين الثالثة إلى الخامسة فجرا.. ويقال أنها الساعة التي نكون خلالها في أوهن حالاتنا النفسية والجسدية.. ففي هذه الساعة ينتحر من أصيب باكتئاب.. وتحدث النوبات القلبية وجلطات المخ لمن هو على استعداد لذلك.. إنها الساعة التي يكون فيها النوم عميقا جدا.. وتكاد الكوابيس تتحقق.. إنها الساعة التي تسيطر فيها أعمق المخاوف على نفوس البشر.. وتكون الأشباح والشياطين في أوج قوتها)).. وقد تم اقتباس اسم الفيلم عام 1972 لعمل برنامج إذاعي يتحدث عن قصص الرعب والغموض.. ويبث من (نيويورك) بواسطة قناة (WBAI).. إذ يتم خلاله استضافة العديد من الكتاب في هذا المجال.. علما بأن البرنامج ما زال مستمرا حتى يومنا هذا.. ويعد أحد أقدم البرامج الإذاعية في العالم.

ترى.. ما الذي جاء مسماه قبل الآخر.. اللون البرتقالي أم فاكهة البرتقال؟!.. أبتسم لهذا السؤال.. ثم.. ينتقل بصري بالصدفة إلى تلك النبتة.. لقد نسيتها تماما بعد أن عثرت على المال.. فقد أصبحت كلوحة فنية معلقة على الجدار.. تنسى وجودها أغلب الوقت.. وتلقي إليها نظرات عابرة لا اكتراثية بين وقت وآخر.. لكنها نبتة تستحق التأمل بكل تأكيد.. إنها تحمل عبقا تاريخيا يثير الخيال.. كيف كان شكل العالم آنذاك يا ترى؟!.. كيف كانت حياة البشر حينها.. حقا أن الإنسان بكل ضجيجه.. ليس سوى لحظة عابرة سريعة من تاريخ الأرض الذي يمتد لمليارات السنين.

تدور تلك الأفكار في رأسي.. مما جعلني أطفئ السيجارة في كوب ماء كنت قد شربت نصفه.. لأنهض من مكاني بطريقة آلية نحو النبتة.. أنظر إليها وأتحسسها.. وهو ما لم أفعله بهذه الدقة من قبل.. أحاول أن أشم رائحتها.. لكنها بلا رائحة.. إنها تبدو كأي نبتة عادية حتى تكاد لا تصدق أنها معمّرة!!.. ثم.. توقف عقلي فجأة عند نقطة ما.. كيف لم أفكر بهذا من قبل؟!!.. الأمر يستحق البحث.

شعرت بحافز قوي ولهفة شديدة وأنا أفتح هاتفي الذكي.. أبحث بين الصور واللقطات في الألبوم.. أمر عليها بأُصبعي بسرعة بالغة.. فيديو وصور لعقد قراننا.. وأخرى في السيارة وفي أماكن عامة.. معظمها مع (غادة) بعد زواجنا.. فلم أكن أملك المزاج الرائق لالتقاط الصور قبل ذلك بطبيعة الحال.. تقع عيني على ذلك الفيديو أخيرا.. الضوء الأسود وهو يدخل جسد (ناصر).. أشاهده برهبة ونظرة تختلف عن كل المرات السابقة.

أتساءل وأنا أحك رأسي.. نبتة غريبة موجودة في شقة (ناصر).. ضوء أسود يدخل جسده أثناء احتضاره؟!.. هل هناك ارتباط بين الاثنين؟!.. وما الرابط بالضبط؟!.. ربما هذه النبتة تترك شيئا ما في الهواء.. عبيرا معينا له خواص غامضة تكشف ما يحدث للبشر لحظة احتضارهم.. ولكن من خلال عدسة الكاميرا فقط.. وليس بالعين المجردة!!!.. بنفس الفكرة الدارجة -وبغض النظر عن صحتها- عن رؤية الأشباح في الصور الفوتوغرافية وليس بالعين المجردة.. نعم.. لماذا لا يكون هذا السبب الذي جعلني أرى الضوء الأسود بكاميرا هاتفي أثناء احتضار (ناصر) رحمه الله؟!..

صحيح أن النبتة لم تكن معه في المستشفى.. لكنها ظلت في شقته فترة طويلة حتى تشرّب جسده عبيرها.. لو كان استنتاجي صحيحا.. فسيوضح هذا نقاطا كثيرة.. إلا أنني ما زلت أجهل طبيعة ذلك الضوء الأسود؟!.. قد يكون عبارة عن طاقة كونية مجهولة تدخل جسد الكائن الحي أثناء احتضاره وتسلبه حياته.. كلام منطقي ويبدو مقنعا رغم غرابته.. لست معروفا بالذكاء والتحليل البارع.. فكيف أتيت بفكرة كهذه؟!.

ظللت غارقا في خواطري لأكثر من ساعة.. إلى أن انتبهت أن موعد شروق الشمس بات قريبا جدا.. وأنا أكره النوم بعد شروق الشمس.. فاتجهت إلى غرفة النوم حيث (غادة) ما تزال غارقة في سباتها.. واستلقيت على السرير لأغطي جسدي بأكمله باللحاف.. إلا أن أفكاري ظلت في الخارج تطرح التساؤلات واحدا تلو الآخر عن تلك النبتة.. فطرأت بذهني فكرة شيطانية جعلتني ألتهب فضولا في فراشي.. فكرة غريبة للغاية.. وقد تبدو مخيفة.. بل هي مخيفة بالفعل!!.. وربما تودي بحياتي!!.. هل هو الفراغ القاتل الذي يجعلني أفكر بهذه الطريقة؟!.



بغض النظر عن السبب.. هناك تجربة صغيرة أشعر برغبة قاتلة للقيام بها.. تجربة بشعة!!.. ولم أنم يومها إلا بعد أن عقدت العزم -للأسف- على تنفيذها وفي أقرب فرصة.

أيام قليلة مرت وتفاصيل تلك التجربة الغريبة تسيطر على تفكيري.. فلاحظت (غادة) حالة السرحان التي انتابتني مؤخرا.. لتسألني بود صباح أحد الأيام وأثناء تناولنا الإفطار:

- أراك منشغل البال باستمرار في الآونة الأخيرة.. هل أنت بخير؟!.

أنظر إليها وأقول مبررا من دون أن أجرؤ على قول الحقيقة:

- هذا الاستقرار النفسي والمادي مريح جدا.. لكنه ممل أيضا بصراحة.. لقد بحثت كثيرا في (الانترنت) عن أي شيء يساعدني لجعل حياتي أفضل.. وكل ما أقرأه لا يتجاوز تلك الوصفة الغبية التي يتحدث عنها الجميع.. يجب أن تكون سعيدا.. أن تكون قويا.. أن تتغلب على الكسل.. أن تكون ناجحا.. وأن تبتعد عن الحزن.. كأن كلمة (يجب) هذه مضاد حيوي سيقضي على مشاكلي.. لا تقل لي (يجب).. أخبرني كيف!!.

فترد مبتسمة:

- هذه طبيعة الحياة يا عزيزي.. فالاكتمال ممل.. والنقص يجمل الأشياء دوما!!.. تخيل أنني عشت هذه الحياة الباردة لسنوات طويلة.. ربما طوال فترة وجودك في السجن.

أقول مدافعا:

- لا.. لم تكن حياتك باردة.. كنتِ في حالة سعي مستمر للقمة العيش.. وهذا أبعدك عن الفراغ الذي نعيشه الآن.. إن حياتنا بلا معنى.. وبلا هدف.. المعذرة لكننا مجرد سمكتي زينة في حوض صغير.. فلا نرى أو نسمع أو نتعامل مع أحد خارج محيطنا.. إننا نتجه إلى الإفلاس الروحي.

إنها تعرف أن كلامي صحيح.. فنحن نعيش حالة غريبة من التخدير بفضل جهاز التلفاز.. إنه المساعد الرئيسي لإبقاء العلاقات الزوجية متماسكة محافظة على برودها من دون أن ينتبه أحد الطرفين.

فتحاول (غادة) أن تبدي وجهة نظرها وتطلب مني أن أشعر بالامتنان لحياتنا الهانئة المستقرة هذه والتي يتمناها الملايين

غيرنا.. فألتزم الصمت حين أتذكر أن كلامي في الواقع لم يكن السبب الحقيقي لشرودي.. بل تلك الفكرة المجنونة التي باتت تسيطر علي.. إلا أنني لم أجرؤ على الإفصاح عنها.. لكني -وأثناء حديثنا هذا- كنت قد اتخذت القرار بتنفيذها مساء نفس اليوم.

أتذكر جيدا ليلتها حين أخبرت (غادة) أنني سأنزل إلى الطابق الأسفل لأسير قليلا وسط المحلات التجارية التي تزخر بها منطقة (الفروانية) كوني أرغب بالانفراد بنفسي.. فوافقت ببساطة من دون أن تعرف ما أنوي فعله.. لأخرج من الشقة ومعي النبتة ذاتها.. مدعيا أنني سأشتري لها علبة أجمل على سبيل التغيير وقتل وقت الفراغ.. أي عذر للخروج ستصدقه (غادة).. لأننا لا نفعل شيئا في حياتنا تقريبا.

خرجت متجها إلى سطح العمارة.. أحتاج أن ألقي عليه نظرة سريعة.. فاتضح من النظرة الأولى أن لا أحد من السكان يأتي إلى هنا.. المكان مهمل تماما.. ولم أجد فيه سوى بعض الأثاث القديم والأقراص اللاقطة.. مع بعض الثياب القديمة البالية التي لفها الغبار.. مصيبة أن تجد من يستخدم السطح مكبّا للنفايات.. هناك أيضا صناديق خشبية وأخرى من الورق

المقوّى.. كلها مرمية متناثرة بإهمال.. حسنا.. هذا المكان.. وهذا الصندوق تحديدا يصلحان للتجربة!!.

وضعت النبتة في الصندوق.. ثم نزلت إلى الطابق الأسفل خارجا من العمارة.. ورحت أسير بين المحلات أبحث عن لوح رفيع جدا من معدن الرصاص.. لماذا؟!.. سأذكر السبب بعد قليل.. لم يكن هذا سهلا.. إذ تطلب الأمر بعض الوقت إلى أن عثرت على اللوح المطلوب.. فدفعت ثمنه.. وحملته معي عائدا إلى العمارة.. لأتوقف في الساحة الأمامية باحثا عن شيء ما.. لا أعتقد أنني سأجد صعوبة في العثور عليه.. فالشوارع تمتلئ بهم.. أتحدث عن القطط.. نعم.. هذا واحد.. وهذا آخر.. أحاول أن أجذب ذلك القط ناحيتي.. لكنه يخشاني كثيرا كعادة القطط.. أجرب مع قط آخر.. وآخر.. أحدهم سيجرؤ ويقترب مني في النهاية.

أخرج من جيبي قطعة دجاج صغيرة أخذتها من الثلاجة ووضعتها في كيس بلاستيكي خبأته في جيبي دون أن تنتبه (غادة).. أحاول أن أغري بها ذلك القط تحديدا والذي بدا أكثر جرأة من أقرانه.. فيتبعني وهو يموء.. رائع.. أسير والقطعة بيدي.. والقط ما زال يتبعني.. إلى أن صعدت إلى

سطح العمارة.. ألتفت حولي.. لا يوجد أحد كما هو متوقع.. ثم أتجه إلى ذلك الصندوق الذي وضعت فيه النبتة.. لأضع فيه قطعة الدجاج أيضا.. والقط يترقب.. قبل أن أسمح له بالقفز داخل الصندوق لالتهام القطعة.

القط يبدأ بالأكل في نهم.. يجب أن أنتظر قليلا وأستعد نفسيا لفعلتي السوداء التي سأرتكبها.. فقد اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أخرج سكينا حادا كنت قد خبأته في جيبي.. ثم طعنت القط بسرعة بيد مرتجفة!!.. ليموء بقوة وهو يخر على الأرض بمشهد تقطّع له قلبي.. الدماء تنزف منه بغزارة.. والدموع تنحدر من عيني بغزارة أيضا.. لا أنكر أنني بكيت كثيرا حينها.. لقد تحولت إلى إنسان حساس للغاية.. فقد كنت في الماضي أرتكب أفعالا كهذه من دون أن يطرف لي جفن.. إنه التقدم بالسن الذي يزيد من عاطفة المرء.

القط يرتجف كورقة.. والنبتة موجودة بجانبه حيث تركتها.. ثم أقوم بتصوير لحظة احتضاره بكاميرا هاتفي.. لقد كنت محقا في توقعي.. النبتة.. النبتة هي السبب بالفعل!!.. هي التي تطلق عبيرا بلا رائحة يجعلنا نرى الضوء الأسود الذي يدخل رأس كل كائن حي أثناء احتضاره.. وأعني كل كائن حي.. سواء كان

بشرا أو حيوانا.. لأنني أراه الآن بوضوح عبر شاشة هاتفي وهو يدخل رأس القط.. بنفس الطريقة التي حدثت مع (ناصر) رحمه الله.. إنه يتشكل فجأة.. فلا توجد له نقطة بداية.

الآن تأتي الخطوة الأهم.. يجب أن أسرع.. القط يلفظ أنفاسه الأخيرة.. فأتيت بلوح الرصاص لأستخدمه كلحاف وأغطي به القط.. الضوء الأسود يصطدم باللوح ويعجز عن اختراقه.. ليلتف حوله بطريقة غريبة!!.. ويجد طريقه إلى رأس القط أخيرا.. دقائق قليلة.. قبل أن يموت القط فعليا وتهمد حركته إلى الأبد.

عندها فقط عقدت حاجبي بشدة.. وبدأت أفكر بعمق.. هذا له معان كثيرة.. ومخيفة!!.. لقد استخدمت لوحا من مادة الرصاص تحديدا لأنها تستخدم عادة كعازل للأشعة*.. ولو تعاملنا مع الضوء الأسود على أنه شعاع.. فسيتمكن لوح الرصاص من عزله ومنعه من الوصول إلى الجسد في لحظات الاحتضار.. لماذا أفعل كل هذا؟!.. بسبب الفضول القاتل الممزوج بوقت الفراغ الذي أعيشه.. كيف توصلت إلى هذه الفكرة الذكية؟!.. لا أعلم.. لقد ظهرت في عقلي

* حقيقة

فجأة.. يبدو أنني لست بالرجل السهل.. كيف جرؤت على ارتكاب جريمة بحق ذلك القط المسكين؟!.. لم يكن الأمر هينا.. والدليل أنني ما زلت أبكي وأرتجف.

مسحت دموعي.. وأشعلت سيجارة لتخفيف حدة التوتر كما يفعل المدخنون عادة.. وأخذت نفسا عميقا.. ثم جلست على كرسي خشبي قديم متهالك وجدته على السطح وأنا أفكر بعمق.. أطرح على نفسي سؤالا بالغ الأهمية.. ماذا لو قمنا بهذه التجربة وتمكنا من عزل الضوء الأسود عن شخص يلفظ أنفاسه الأخيرة بسبب مرض ما أو إصابات بليغة؟!.. هل سيمتلك الأطباء كل الوقت حينها لإنقاذه؟!.. وماذا لو عزلنا الضوء الأسود إلى الأبد في صندوق مصنوع بالكامل من مادة الرصاص؟!.. هل سيعيش الإنسان حينها إلى ما لا نهاية؟!.. الإجابة واضحة.. ومرعبة بنفس الوقت.. وكأنني اقتربت من تحقيق حلم البشرية.. الخلود!!!.

تركت هذا السؤال معلقا في ذهني.. ونزلت إلى الشقة لألقي تحية سريعة على (غادة).. مع ابتسامة عريضة ملأَت وجهي كي أشعرها بالأمان.. في حين الأفكار تلتهم رأسي من دون توقف..

ثم جلست وأمسكت هاتفي لأبحث في (الانترنت) عن بعض المعلومات.. هناك نقاط مهمة ينبغي التأكد منها.

حسنا.. لقد تبين لي بعد دقائق من البحث أن أعضاء جسم الإنسان لا تفنى في وقت واحد بعد الوفاة.. فالأمعاء مثلا تعيش 5 أيام بعد توقف القلب.. أما الكلى فتعيش ساعتين.. وتعيش قرنية العين 10 أيام.. في حين قد يعيش الجِلد شهرا كاملا.. وخلايا الدم الحمراء تعيش 3 شهور.. أما خلايا العظام فتعيش لسنوات طويلة جدا*.

في المقابل يعيش الدماغ -وهو الأهم بالنسبة لي- حوالي 6 دقائق فقط قبل أن يتوقف عن العمل.. هل هذا يعني أن سر الحياة موجود في الدماغ؟!.. الآن فقط أفهم لماذا يموت الإنسان حين تموت خلايا دماغه.. في حين لا يموت مباشرة بعد توقف قلبه.. فنرى الأطباء في الأفلام يهرعون لصعق المريض على أمل إنعاش قلبه.. كي لا يلحقه توقف خلايا المخ عن العمل**.. أو فلنقل.. قبل دخول الضوء الأسود إلى الرأس!!!.. نعم.. فهذا الجزء تحديدا لم يكتشفه الطب..

---

* حقيقة.

** حقيقة.

ولا حتى علم (الأنثروبولجي)*.. مذهل أن الذي يعرف تلك الحقيقة في العالم كله أنا.. أنا فقط.. يبدو أن هذا الضوء الأسود عبارة عن مجموعة من العناصر الكيميائية التي لم يكتشفها العلم إلى الآن.. ربما ستضاف إلى الجدول الدوري لاحقا.. وستكون مباشرة بعد ذلك العنصر الذي يحمل اسم (آينشتين)**.. لا أعرف مدى دقة كلامي.. لكن هذا لا يهم.. المهم أنني أفكر الآن بجدية بإجراء التجربة على نفسي.. ولم لا؟!.. فمن منا سيرفض الحياة الأبدية؟!!.. خاصة لشخص مثلي ضاع عمره كله هباء.

---

* (الأنثروبولوجي) (Anthropology) علم يختص بدراسة كافة جوانب الإنسان.. وهو ينقسم لعدة فروع.. فهناك (الأنثروبولوجي الطبيعي) المختص بدراسة جسد الإنسان وتطوره على مر التاريخ.. وهناك (الأنثروبولوجي الحضاري) وهو المختص بدراسة الأسباب التي جعلت من الإنسان كائنا حضاريا.. وهناك أيضا (الأنثروبولوجي الاجتماعي) الذي يركز على المجتمعات والقوانين والنظم.. وأخيرا (الأنثروبولوجي التطبيقي) الذي يدرس طرق التواصل بين الإنسان الحضاري والإنسان البدائي لمساعدته على التطور ومواكبة الحياة.

** يتحدث هنا عن (أينشتاينيوم) (Einsteinium) وهو العنصر الكيميائي رقم 99 في الجدول الدوري والذي يحمل الرمز (Es).. وقد أطلق عليه هذا الاسم عام 1952 تكريما للعالم الشهير (ألبرت أينشتاين) الذي كان في أوج شهرته في تلك الفترة.. وذلك على الرغم من أنه لم يساهم في هذا الاكتشاف أصلا.. فقد تم اكتشاف الـ(أينشتاينيوم) من قبل فريق من العلماء أثناء فحص شظايا أولى تجارب القنبلة الهيدروجينية.

طبعا هناك أسئلة كثيرة لن أملك الإجابة عليها إلا بعد أن أقوم بتجربتي هذه.. فلو نجحت.. ماذا سيحدث؟!.. هل الحياة الأبدية التي سأحصل عليها ستكون شبابا دائما؟!.. أم أنني سأشيخ وأشيخ من دون توقف لكني لن أموت؟!.. وإلى متى سأبقى حيا؟!.. وماذا لو قرر أحدهم أن يقتلني؟!.. هل سأموت؟!.. أم أظل أحتضر في عذاب أبدي لا يتوقف؟!.. وهل سيتمكن الأطباء من إنقاذي كونهم سيملكون كل الوقت لذلك بسبب عزل الضوء الأسود عني؟!.. الأسئلة لا تتوقف ولا أعثر لها على إجابة.. شيء ما يخبرني أن هذه القصة ستنتهي بكارثة.. وهو ما قد تتوقعه أيضا عزيزي القارئ.. لكن رغم ذلك.. لا أعرف لماذا أجد في نفسي رغبة مجنونة بالاستمرار!!!.

في اليوم التالي -ومن باب الاطمئنان- كررت التجربة مع قط آخر.. إذ طعنته في بطنه بكل قوتي للأسف.. مع ذات الشعور بالمرارة وأنا أرتكب هذه الجريمة الحقيرة بحق كائن ضعيف.. لكن هذه المرة.. حجبت الضوء الأسود عن القط لأكثر من ساعة بعد أن قمت بلف جسده بالكامل بلوح الرصاص.. وقد نجحت فكرتي.. القط لم يمت.. ولم تنته معاناته ويلقى

حتفه إلا حين أخرجته من اللوح.. ليخترق الضوء الأسود رأسه كما هو متوقع.. هذا يعني أن التجربة قد تنجح أيضا لو طبقتها على البشر.. علي أنا تحديدا!!.

ينبغي أولا وجود النبتة بمكان قريب مني بعد أن علمت بدورها.. أو ربما لم يعد هذا ضروريا.. فقد تشرّب جِلدي ورئتاي عبير النبتة كونها موجودة في الشقة منذ مدة طويلة نسبيا.. تماما كما حدث مع (ناصر).. لكن.. الأفضل أن تكون قريبة مني لنضمن نجاح التجربة.. ولا بد أيضا من العثور على طريقة لحبس الضوء الأسود إلى الأبد في صندوق مصنوع بالكامل من الرصاص ولا توجد له أي منافذ.. يجب علي حساب كل شيء بدقة.. الأمر يحتاج فقط إلى بعض التخطيط.

لماذا أبذل كل هذا الجهد من أجل تجربة مخيفة شيطانية كهذه؟!.. هل هي روح المغامرة؟!.. أم أن هناك دافعا آخر؟!.. أطرح السؤال على نفسي مرارا.. فأجد إجابة واحدة تتكرر في ذهني.. إنه (الخلود).. فمن منا سيرفض فكرة أن يعيش مئات السنين ويعاصر جيلا تلو الآخر.. ويشهد التقدم العلمي خطوة بخطوة؟!.

المهم الآن.. يجب أن أركز تفكيري بالقادم.. سأحتاج إلى مساعد بكل تأكيد.. لأنني سأعرّض نفسي للاحتضار وأقترب بشدة من الموت.. على أن يقوم مساعدي بعزل الضوء الأسود عني -وبسرعة- ليحبسه في الصندوق.. وأن يقوم بعد ذلك بإنقاذي.. كيف سأصل إلى مرحلة الاحتضار؟!.. من الممكن استنشاق غاز سام مثلا.. سيتوجب علي فقط أن أحتمل آلام الاختناق لدقائق.. إلا إذا.. إلا اذا ابتلعت حبوبا منومة.. هذا حل مناسب.

المشكلة أن المساعد الوحيد الذي أعرفه وأستطيع أن أثق به.. (غادة)!!.. لكن.. حتى لو أقنعتها بالقيام بأمر كهذا.. فهل ستنجح بإنقاذي بالفعل؟!.. يا إلهي.. مجرد التفكير بالأمر يصيبني بالقشعريرة.. يبدو أن قصتي تتجه تدريجيا إلى الذروة.. وهذه الذروة اقتربت كما يبدو.. اقتربت جدا.. دون أن أعرف ما الذي ستؤول إليه الأمور!!.. ورغم أنهم يقولون أن لا حدود للعلم.. إلا أنني أشعر رغم ذلك أنني أصل به إلى حد لا حد بعده.. منطقة غامضة جدا يصطدم فيها العلم بالروحانيات.. ثم.. انتبهت فجأة إلى أنني قمت بتدخين علبة سجائر كاملة من دون أن أشعر.. وأنا ما زلت

على سطح العمارة.. بالطبع.. التفكير والسجائر يرتبطان ببعضهما كثيرا لمن يدخن.

في اليوم التالي.. استيقظت من النوم بعد الثامنة صباحا بقليل.. حيث وجدت (غادة) في مطبخ الشقة وقد أعدت لنا إفطارا بسيطا من البيض والجبن.. جلست على الطاولة الصغيرة التي لا تحتمل شخصا ثالثا.. أنظر إليها ممتنا.. فتبتسم من دون تعليق.. القلق يقتلني.. لا أعرف كيف ستكون ردة فعلها لو علمت بأمر تجربتي المخيفة.. أو حين أطلب منها مساعدتي.

تصب لي فنجان القهوة.. فأقول لها وأنا أنظر إلى الدخان المتصاعد من الكوب:

- (غادة).. إنني أفكر بأمر ذلك الضوء الأسود وما رأيناه في تسجيل الفيديو.. ربما لم نعطِ الأمر حقه بعد.. فموضوع البحث عن المال كان كل ما يشغل تفكيري آنذاك.. لكن الآن.. وحين أفكر جديا بما حدث.. أدرك أننا وقعنا على اكتشاف خطير قد نتمكن من استغلاله والاستفادة منه.. لقد.. احم.. لقد واتتني فكرة مذهلة.

نظرت إلي مستغربة كوني أتحدث عن هذا الأمر للمرة الأولى منذ مدة.. فأكملت بحرج:

- لماذا الاستغراب؟!.. من المؤكد أن ما حدث لـ(ناصر) سيطرأ في ذهننا عاجلا أم آجلا.. فالنبتة موجودة في غرفة المعيشة ونحن نراها كل يوم.. بل وأنت بنفسك تقومين برعايتها.

قالت مدافعة عن نفسها:

- لأن النبتة أصبحت جزءا من الشقة.. فالروتين ينسينا أمورا كثيرة كما تعلم.. دعك من أنني أنسى أن أسقيها أحيانا.. ولولا أنها تحتمل الحياة بلا ماء لفترة طويلة كما علمنا.. لماتت بسبب إهمالنا.

إنها محقة بخصوص كيفية تحول وجود الأشياء التي نراها يوميا إلى روتين من دون أن نشعر.. ولو تساءل أي منا عن شكل التطريز الموجود في ستارة غرفته -دون أن ينظر إليه- لما تذكر.. هذه طبيعة بشرية.. هناك أشياء موجودة وكفى.. فحياتنا أكثر قيمة من التدقيق في تلك التفاصيل.

ثم سألتني باستغراب وكأنها لم تنتبه لكلامي سوى الآن:

- مهلا.. مهلا.. ما علاقة النبتة بالضوء الأسود الذي دخل رأس (ناصر)؟!.

أخبرتها باستنتاجي متجاهلا التطرق لأمر تجربتي مع القط.. فنظرت إلي بذهول.. وكأنها صعقت من ذكائي.. لتسألني بشك:

- وما أدراك أن استنتاجك صحيح؟!.

أجبتها بتوتر محاولا أن أخفي سبب يقيني:

- هذا الجواب الوحيد والممكن.. لقد رأينا عبر كاميرا هاتفي ما لم يره أحد غيرنا في العالم.. والشيء الوحيد المختلف في حياة (ناصر) بأكملها كان وجود هذه النبتة في شقته.. لهذا ربطت بينهما.. أرى أنه استنتاج منطقي للغاية.. لكن.. هناك تساؤلا غريبا مر بذهني.. ماذا سيحدث لو تمكنا من عزل الضوء الأسود عن شخص يحتضر؟!.. هل سيعيش حينها إلى الأبد؟!.

أطلقت شهقة قوية.. ثم قالت بعينين متسعتين:

- لقد اقشعر جسدي من سؤالك.. كيف ستفعل هذا؟!.

قلت وقد تشجعت قليلا:

- لقد بحثت في (الانترنت).. واكتشفت أن مادة الرصاص تحجب الأشعة.. وقد تحجب الضوء الأسود نفسه لو تعاملنا معه بمنطق الأشعة!!.

ردت وقد استوعبت شيئا من كلامي:

- هل تريد أخذ الفكرة للجهات المسؤولة والاستفادة منها كبراءة اختراع؟!.

قلت بغموض:

- وهل سيصدقني أحد أصلا؟!.. دعك من الدخول في تحقيقات كثيرة عن مصدر النبتة.. لدي طريقة أفضل للاستفادة من هذا الاكتشاف.

قالت بحنق وهي تعقد حاجبيها:

- المعذرة.. إن شخصا ما يملأ عقلك بهذه الأفكار.. من هو بالضبط؟!.

قلت بصدق:

- لا أحد.

هزت رأسها نفيا قائلة:

- مستحيل.. هذه الأفكار لا تدخل الذهن من اللامكان.

تجاهلت كلامها.. وقلت بجدية:

- عزيزتي.. إنني أفكر بتعريض نفسي للاحتضار والاقتراب بشدة من الموت.. وحين يأتي ذلك الضوء الأسود.. سنقوم بعزله وحبسه بعيدا عني.. ومن ثم إنقاذي وإنعاشي.

وقفت من دون أن تشعر بنفسها.. لتقول بحدة:

- هل جننت؟!.. لماذا كل هذا؟!.. إنك لست على ما يرام منذ مدة.. إذا كان الفراغ يجعلك تفكر بهذه الطريقة الغريبة.. فنستطيع أن نقتله بشيء آخر.. لماذا لا نسافر؟!.. هذا سيغير الكثير من حالتنا النفسية!!.

قلت وأنا أزفر:

- لا علاقة لما أفكر به بوقت الفراغ.. فحتى لو سافرت لأبعد بقعة في العالم.. سأظل أفكر بهذا الأمر.. صدقيني.. وموضوع السفر عموما مستحيل حاليا.. لا أريد أن تظهر علينا أي بوادر مفاجئة للانتعاش المادي كما ذكرت لك منذ مدة.. سيتم هذا بالتدرج البطيء.

صمتت وصدرها يصعد ويهبط من دون توقف.. ثم حاولت أن تتمالك أعصابها.. فالتقطت نفسا عميقا.. لتتحدث معي بلغة العقل:

- يا عزيزي.. جميعنا تنبت في عقولنا أفكار غريبة بين حين وآخر.. ربما نستنكرها في البداية.. لكنها تبقى في أدمغتنا لفترة من الزمن.. ثم نعتاد عليها إلى أن نألفها.. حينها ستضرب جذورها في العمق.. فتنمو وتكبر.. وتستحوذ على كل تفكيرنا.. إلى أن تصبح نفسيتك قابلة لتنفيذها.. هذا ما حدث معي حين هربت من جحيم أسرتي.. هل تظن أن الأمر كان سهلا أن أتجه لعالم المخدرات؟!.. لكني لم أفكر بهذا إلا حين وصلت إلى الاقتراب من التسول.. كنت أملك دافعا قويا.. أما في حالتك.. فلا توجد أي دوافع للقيام بفعل كهذا.. إنك تغامر بحياتك نفسها.. لماذا؟!.

نظرت إليها متعاطفا.. لأقول وأنا أرشف القهوة:

- الخلود.. من الذي يرفض الخلود؟!.

قالت بعصبية وقد شعرت أن لغة العقل لن تنفع معي:

- المعذرة لكنك تتكلم كالمجانين.. تخيل أن يسمعنا أحدهم بالصدفة.. زوجة تحاول أن تقنع زوجها ألا يخاطر بحياته للقيام بتجربة يعزل فيها الضوء الأسود عن جسده لأنه يرغب بأن يعيش مئات السنين!!.

الغريب أن كلامها لم يستفزني أبدا.. فابتسمت بحب محاولا تهدئتها.. ثم قلت:

- لا أقصد أن أثير غضبك يا عزيزتي.. لكن هذا الاكتشاف غير كل مفاهيمي.. ربما سيمكننا من الوصول إلى سر الخلود أو إطالة العمر إلى مدى لم يبلغه أحد.. بل أن كل شيء يدل على أننا توصلنا إلى ذلك بالفعل.. ولم تتبق سوى التجربة.. تخيلي لو نعيش 150 عاما إضافية.. بكل تأكيد ستعوضنا الكثير بعد أن عشنا أهم سنوات حياتنا هباء.. وسنشهد تقدم العالم.. ونرى التركيبة السكانية تتغير ببطء من دون أن يشعر بذلك سوانا.. و....

قاطعتني بحدة:

- لو قلت هذا الكلام لأي شخص لأخذك إلى مستشفى الطب النفسي مباشرة.

قلت بصدق:

- لأن أحدا في العالم لا يعرف بهذا الأمر سوانا!!.. لقد رأيت كل شيء بنفسك.. نحن فقط نعرف السر.. ونحن فقط نعرف أن هذه النبتة الغريبة هي المفتاح الذي يمكّننا من رصد الضوء الأسود لحظة الاحتضار.

سكتنا طويلا.. ثم سألتني محاولة أن ترمي بآخر أوراقها:

- حتى لو نجحت.. كيف ستبرر للناس وجودك على قيد الحياة بعد 60 أو 70 عاما من الآن؟!.. ماذا عن أوراقك الرسمية التي ستشير إلى تاريخ ميلادك الحقيقي؟!.. ستضطر إلى الانزواء والاختباء أكثر مما تفعل الآن.. وربما ستضطر للتنقل والسفر بين فترة وأخرى كي لا يكشف أحد سرك.. وإلا فستتحول إلى -المعذرة- فأر تجارب في المختبرات إذا انفضحت ووصل الأمر إلى الجهات المسؤولة.. ثم ما أدراك أن عزل الضوء الأسود اللعين هذا سيمنحك الشباب الدائم؟!.. أو أن العبث به لن يصنع أشياء أكثر سوءا؟!.. ما تتحدث عنه انتحار حقيقي.. فقد تموت لحظة احتضارك ويفسد كل شيء.

قلت محاولا إقناعها بالمنطق:

- أرجوك لا تنسي.. إنني رجل بماض سيىء.. وأفضل طريقة لمحو هذا الماضي أن تكون بفعل التراكم الزمني.. لكن حين يحدث ذلك.. سأكون عجوزا لا قيمة لي.. أما لو قمت بهذه التجربة ونجحت.. فالأمر سيختلف.. لقد جاءتني المعجزة إلى مكاني لجعل حياتي أفضل.. لم لا أجرب؟!.. ولو نجحت.. تستطيعين حينها فعل الشيء ذاته.. فمن الممكن عزل الضوء الأسود الخاص بك أيضا.. مما سيمنحك حياة طويلة قادمة قد تمتد لمئات السنين.. أما بخصوص إثباتاتي الرسمية كما تقولين.. فسنجد لها حلا فيما بعد.. لن تكون أكثر صعوبة مما أنوي القيام به.

هذا جزء بسيط من نقاشنا الذي بدأ في هذا اليوم ولم يتوقف خلال الأيام القليلة التالية.. بل تفاقم!!.. فقد استحوذ الأمر على كل تفكيري.. وتحول إلى شغلي الشاغل.. ودخلت مع (غادة) في جدال عنيف أكثر من مرة.. حتى أنها انفجرت غاضبة حين رأتني أرسم تصميما للصندوق الذي سأحبس فيه الضوء الأسود والذي سأتحدث عن تفاصيله لاحقا.. كنت أعلم أنني ماض في طريقي ولن يوقفني أحد.. والفضول

يقتلني لمعرفة ما ستؤول إليه التجربة.. لم أظن يوما أنني بهذه الشجاعة لأقترب من الموت بإرادتي.. هذه حقيقة!!.

ويبدو أن الإلحاح يؤدي دائما إلى نتيجة.. خاصة حين تحولت حياتنا إلى جحيم.. وإلى شجارات مستمرة.. ونقاشات استنزفت الكثير من طاقة (غادة).. وكانت كلها نقاشات بيزنطية* لا طائل منها بسبب عنادي.. بل أنها زادتني إصرارا.. إلى درجة أنني هددت (غادة) صراحة بأنني سألجأ لشخص آخر أدفع له المال لمساعدتي.. وربما هذا ما جعلها ترضخ أخيرا وتوافق!!.. وافقت ممتعضة.. على مضض وباستياء واضح!!.

كانت خطتي بسيطة.. أن آتي بصندوق شبيه بالكفَن مصنوع بالكامل من الرصاص السميك يكفي كي أستلقي فيه.. وسيكون الصندوق من طابقين.. على أن أستلقي في الطابق الأسفل منه بعد أن آخذ منوما قويا كي لا أمر بمشاعر الاختناق البغيضة..

---

* (الجدل البيزنطي) مصطلح يطلق على النقاش الذي لاطائل ولا فائدة منه.. ويُنسب المصطلح إلى الإمبراطورية البيزنطية.. حين انشغل الناس في فترة من فتراتها بأدق تفاصيل الجدل الديني.. فنسي مجلس المدينة كل مشاكل وهموم المجتمع.. وراح يناقش أمورا أخرى جانبية.. مثل النقاش حول جنس الملائكة إن كانوا ذكورا أم إناثا!!.. وإذا كان إبليس كبير الحجم لا يسعه مكان.. أم صغير يمكنه العبور من ثقب إبرة!!.. إلخ.

وسأضع بجواري النبتة.. وأنبوبا صغيرا من الغاز الذي سأستنشقه إلى أن أختنق وأصل إلى درجة قريبة جدا من الموت.. إنه غاز الطبخ العادي.. لكن سأشتري أسطوانة صغيرة الحجم بالطبع.. وليست بحجم الأسطوانات التي نستخدمها عادة في مطابخنا.. أما الطابق العلوي من الصندوق فسيظل فارغا.. وحين أشعر بقرب النعاس وبأن جفوني ثقلت بفعل المنوم.. سأفتح محبس الأسطوانة.. ليتدفق الغاز ويملأ أنفي ورئتيَّ.. سأستنشق كمية كبيرة منه كافية لاحتضاري واقترابي من الموت.. لن يكون الأمر سهلا.. فالثواني لها أهميتها في مواقف كهذه.. لذا يجب أن أكون دقيقا للغاية.

وحين تبدأ لحظات الاحتضار.. سيتشكل الضوء الأسود -الذي لم نعرف ماهيته أو طبيعته حتى الآن- ليدخل رأسي.. لكنه سيعجز عن ذلك بسبب وجودي في صندوق مصنوع بالكامل من الرصاص.. عندها سيبحث عن منفذ ليصل إلي.. تماما كما حدث في تجربتي مع القط.. وسيكون المنفذ فتحة صغيرة في الطابق العلوي من الصندوق.. حيث سيدخل خلالها.. لكنه لن يتمكن من الوصول إلى الطابق السفلي الذي سأكون نائما مختنقا فيه.. عندها ستأتي (غادة) وتغلق فتحة الطابق العلوي.

أي أنني في النهاية.. سأكون في الطابق الأسفل من الصندوق.. وسيكون الضوء الأسود معزولا محبوسا في الطابق العلوي الذي يجب أن يظل مغلقا إلى الأبد وألا يتسرب منه أي شيء.

سيتوجب على (غادة) بعد ذلك أن تخرجني من الطابق الأسفل من الصندوق.. وأن تنقذ حياتي من خلال التنفس الصناعي.. أو قد يتكفل بذلك هواء الغرفة الذي سيدخل رئتي.. ولا ننسى كاميرا هاتفي التي سأثبتها في مكان في الصالة يسمح لـ(غادة) بمراقبة التجربة بأكملها.. ومعرفة الوقت المناسب للتصرف.. فبدون عدسة الكاميرا.. لن ترى الضوء الأسود كما علمنا.

أما لو مت -لا قدر الله- فسيكون على (غادة) أن تضعني في فراشي.. ثم تركن الصندوق في زاوية مهملة في الشقة لتملأه بالثياب القديمة.. أو الأواني المنزلية.. أي شيء يبرر وجوده عندها.. على أن تتصل بالشرطة لتمثل دور الزوجة الملتاعة المصدومة.. وتخبرهم أنني كنت نائما أثناء خروجها.. وقد نسيت أسطوانة الغاز مفتوحة.. مما تسبب باختناقي حتى الموت.. ستظن الشرطة أن الأمر لا يتجاوز حادثا منزليا عرضيا يحدث في كل مكان في العالم.. ولن يشكّوا بشيء لأن

أحدا -ومهما بلغ من خيال- لن يعرف بوجود نبتة عمرها آلاف السنوات تكشف وجود شيء اسمه (ضوء أسود) يدخل جسم من هم على وشك الموت!!.

كما ترون.. عملية الفصل بين الجسد وذلك الضوء الأسود عسيرة للغاية.. وبدت لي أصعب من تجربة (كرة ماغديبورغ)* نفسها التي قرأت عنها في السجن ذات مرة..المشكلة أن كل هذه المهام ستواجهها (غادة) وحدها.. أي أن المسؤولية عليها كبيرة جدا بالفعل.. ولا أنسى كلامها حين قالت بسخرية مريرة:

- تخيل أن تموت.. وأكون أنا محل الشبهات رغم كل احتياطاتنا.. سيكون من المضحك أنني نجوت من الصفقات المشبوهة التي نفذتها في الماضي.. ثم أسقط في النهاية بسبب قضية غريبة كهذه لن يصدقها شرطي واحد حتى لو أثبتها وطبقتها عمليا أمامه على رجل يحتضر!!.

---

* (كرة ماغديبورغ) (Magdeburg Hemispheres) تجربة شهيرة قام بها العالم الألماني (أوتو فون غيريكه) (Otto von Guericke) عام 1657 في (ماغديبورغ) في (ألمانيا).. حين استعمل كرة نحاسية كبيرة مقسومة لنصفين لها حواف مطاطية لمنع تسرب الهواء.. حيث قام بتفريغ الهواء من داخلها.. فأصبح فصل نصفي الكرة عن بعضهما مستحيلا.. حتى لو استعان أحدهم بـ16 حصانا.. ثمانية من كل جهة!!.

و.. حان اليوم الموعود الذي كان أسود منذ استيقاظنا.. خاصة حين طرق أحدهم باب الشقة.. وإذ به عامل المحل الذي طلبت منه صنع صندوق الرصاص وفق التصميم الذي رسمته له.. فأدخل الصندوق إلى صالة الشقة.. وقد بدا مظهره مهيبا بالفعل.. بل وشعرت بالعامل يكاد يجن ليسألني عن سبب صنعي لصندوق كهذا.. فأشبعت فضوله حين قلت مغمغما:

- إنه من أجل فيلم سينمائي قصير سأقوم بتصويره مع زملاء لي قريبا!!.

فابتسم.. وتمنى لي التوفيق بلهجته العربية المحببة.. وما إن رحل.. حتى راحت (غادة) تتوسل إلي للمرة المائة أن ألغي الفكرة من رأسي.. لكني ظللت أكابر وأخبرها بإصرار أنني علي أن أتبع حدسي.. وأن عليها التوقف عن محاولاتها هذه.. لأنني ماض في هذا الطريق.. أخبرها بذلك ونيران الفضول تلتهمني لمعرفة ما ستسفر عنه الأحداث.

بدأنا التنفيذ عمليا ظهيرة ذلك اليوم دون أن نفكر بتناول الغداء.. فمن سيفكر بملء معدته وهو على وشك القيام بأمر مروع كهذا؟!.. أتذكر أنني تناولت منوما قويا للغاية

قبلها بنصف ساعة تقريبا.. ثم رقدت في الطابق السفلي من الصندوق وأغلقته على نفسي.. حتى بت في ظلام دامس خانق.. وكأنني (دراكولا) مصاص الدماء الشهير الذي نراه في الأفلام حين يقضي ليلته في تابوت.. فأنا أنام في تابوت فعليا.. لكنه تابوت من طابقين مصنوع من الرصاص العازل.. وبجانبي أسطوانة الغاز الصغيرة.. مع النبتة التي وضعتها بحوضها الصغير على صدري.. النعاس يتسلل إلى عيني رغم توتري الشديد.. ففعل الدواء المنوم أقوى من إرادتي.

لقد حانت أخطر لحظات التجربة.. جفوني ثقلت كثيرا.. لكني أمد يدي رغم ذلك إلى أسطوانة الغاز الصغيرة الموجودة عند رأسي.. أدير المحبس بشيء من الصعوبة لصغر حجم الصندوق.. فأسمع صوت تسرب الغاز.. سسسسسسس.. سسسسسسس.. صوت لا يتوقف ولا ينقطع.. الرائحة تملأ الهواء حولي بسرعة وتصل إلى أنفي.. لن أصل إلى مرحلة الاختناق بهذه السرعة.. سيتطلب الأمر بعض الوقت.. أكون حينها غرقت في سبات عميق ولن أشعر بلحظات احتضاري.. (غادة) تقف في الخارج مترقبة وأعصابها تحترق حتى تكاد تشم رائحة الشياط!!.. سيستغرق تشكل الضوء الأسود

ودخوله الصندوق بضع دقائق كما علمنا.. المدة قصيرة جدا وحرجة.. أرجوك يا عزيزتي.. أحتاج منك أداء مهمتك بدقة.. فدقيقة متأخرة قد تقضي علي وتقتلني.

والآن.. حانت لحظة الحقيقة.. اللحظة الأهم والتي كان وعيي غائبا عنها.. لكني عشت تفاصيلها بنفس الوقت وكنت العنصر الرئيسي فيها.. إنني نائم بعمق غائب عن الوجود.. وأختنق ببطء.. وهذا ليس بالأمر الغريب.. فمن الممكن أن يموت الناس اختناقا من دون أن يدركوا ذلك.. نسمع عن حوادث كثيرة مؤسفة من هذا النوع.. في المخيمات.. وفي البيوت أيضا!!.

كم مر من الوقت؟!.. لا أعرف.. ليست مدة قصيرة على الأرجح.. فهذا ما بدا لي حين استيقظت بتثاقل وقد شعرت بدوار في رأسي.. لأجد نفسي على الأرض في صالة الشقة.. فأسأل (غادة) بشيء من الوهن:

- ماذا حدث؟!.



ردت بسعادة بالغة:

- لقد سارت الأمور كما خططت لها يا عزيزي.. أنت بخير الآن.

انتابتني موجة عارمة من الارتياح ترجمتها في تنهيدة حارة خرجت من أعماقي.. خاصة مع ابتسامة (غادة) العريضة التي توحي أن الأمور سارت على ما يرام بالفعل!!.. وكأن هناك حملا ثقيلا انزاح عن كاهلنا أخيرا.. فقد كانت تلك التجربة شغلنا الشاغل طوال الأيام الماضية.. أغمضت عيني باسترخاء.. وحاولت أن أركز قليلا لكي أعرف شعوري بعد إنقاذي من الموت وحجب الضوء الأسود عني!!.. لا.. لا أشعر بأي اختلاف.. حتى أنني شككت للحظة أن (غادة) خدعتني ولم تفعل ما هو مطلوب منها.. لكن.. لماذا ستفعل ذلك وقد اقتربت من الموت فعليا وأنجزت الجزء الأصعب من التجربة؟!.. فقالت مبتسمة وكأنها قرأت أفكاري:

- الضوء الأسود محبوس في الصندوق.. تستطيع التأكد بنفسك.

نعم.. أستطيع التأكد بنفسي من خلال كاميرا هاتفي.. فنهضت من مكاني.. ومشيت مترنحا ناحية الكاميرا كي أشاهد التسجيل.. لأرى (غادة) تنظر إلى الشاشة من بعيد وهي تبدو قلقة جدا.. الضوء الأسود الغامض يتشكل في الفراغ بطريقة غريبة لا يمكن وصفها كالعادة.. ويتحرك ليدخل من فتحة الصندوق

الوحيدة.. بضع دقائق إلى أن تجمّع بأكمله في الطابق العلوي منه كما هو مخطط.. تأتي (غادة) بعدها وتغلق الفتحة بغطاء من الرصاص وكأنها تحبس ماردا من قصص (السندباد) في القمقم.. ثم تخرجني من الطابق الأسفل من الصندوق بواسطة بابه الجانبي.. لتقوم بإنعاشي بهلع واضح من خلال التنفس الاصطناعي.. إلى أن استيقظت أخيرا.. دقائق قليلة بدت لي دهرا.. كل شيء مر بسلام.. لكن التساؤلات ستظل مطروحة.. فربما لن يمكنني معرفة نتائج ما فعلته إلا على المدى البعيد.. وقد يكون هذا المدى البعيد.. بعيدا جدا!!.

ذهبت لأدفع الصندوق دفعا إلى ركن الصالة.. وقمت بتغطيته بغطاء جميل.. ثم وضعت عليه جهاز التلفاز وجهاز استقبال اللاقط.. ولو زارنا أحدهم يوما -وإن كنت أشك بزيارة أي إنسان لنا- فلن يصدق ما يمكن أن يحويه هذا الصندوق من سر مذهل.. حتى لو قام بفتحه.. إلا من خلال كاميرا فيديو.. وبوجود النبتة التي قررت الاحتفاظ والاعتناء بها خوفا من حاجتنا إليها مستقبلا.

ولا أنكر أننا ظللنا نتساءل ليلتها إن كان وجود هذا الصندوق في شقتنا له أي توابع لم نضعها في الحسبان.. لكن لا يوجد

مكان آخر أستطيع وضعه فيه.. وربما سأشتري لاحقا قفلا ثقيلا وأضعه في قبضة الصندوق.. ثم أتخلص من المفتاح في حاوية القمامة.

كنت أتمنى القول أن قصتي انتهت عند هذا الحد.. وتحققت بذلك كل أحلامي.. لكن في واقع الأمر.. حدثت تغييرات سريعة جدا في حياتي ودون أي مقدمات.. إذ أصبت في اليوم التالي مباشرة باكتئاب شديد غير مفهوم ظل يتفاقم بسرعة رهيبة يوما بعد يوم من دون سبب.. اكتئاب مصحوب باليأس من كل شيء مع لا مبالاة غير معقولة!!.. ولا أبالغ لو قلت أنني لم أكن أمانع لو حرق أحدهم كل أموالي أمامي.

لقد فقدت الرغبة بالحياة.. وبت أستلقي ساعات طويلة في فراشي لا أفعل خلالها شيئا سوى النظر إلى السقف.. وأجلس بعدها ساعات طويلة أخرى أمام التلفاز أنظر إلى شاشته بشرود.. لا أتابع ولا أعرف ما يعرض أصلا.. حتى أنني أهملت نفسي كثيرا.. وراحت لحيتي تنمو بإهمال.. واللحية بالنسبة للرجل بمثابة مؤشر واضح وصريح لحالته النفسية.. لا أتحدث هنا عمن يطلقها تدينا أو تماشيا مع الموضة.. بل من اعتاد حلقها.. وقد فقدت شهيتي تماما أيضا.. ولا أبالغ

لو قلت أنني لم أتناول شيئا على مدى أسبوع سوى القليل.. والقليل جدا.. فنحفت كثيرا وبدأت تتلاشى الطبقة الدهنية (الكرش) التي كانت تغطي جزءا من بطني.

لقد شعرت لسبب ما أنني أتحول إلى إنسان آخر لا يريد شيئا سوى الجلوس كالصنم وأن يُترك لحاله.. وبت لا أطيق الحديث مع أحد.. وأصبحت ضعيفا هشا للغاية.. عاجزا عن حمل كرسي صغير.. ولا أفهم سبب هذا الضعف العام الذي أصاب جسدي فجأة.. كما بدأت أضيق ذرعا بـ(غادة) نفسها!!.. فأطلب منها صراحة أن تتركني لحالي وألا تقترب مني لأنني لست بمزاج رائق للتحدث مع أحد.

لم يكن الأمر هينا عليها أن يطلب منها الشخص الوحيد في حياتها شيئا كهذا.. خاصة وأنني أثرت ذعرها بسبب هذه التغييرات الهائلة في سلوكياتي.. فظلت المسكينة تحاول بإلحاح أن تفهم ما يحدث لي.. وتحدثت أكثر من مرة عن التجربة إياها.. وأنها قد تكون السبب خلف كل شيء.. واقترحت علي بتردد أن أفتح الصندوق وأتحمل تبعات ما سيحدث.. أو مراجعة طبيب في أسرع وقت.

قد تكون محقة في كلامها.. لكن ماذا عساي أن أفعل؟!.. أنا

لا أعرف إن كان هناك خط رجعة أصلا في تجربتي هذه!!.. وأجهل تماما ما سيحدث لو فتحت الصندوق وأطلقت الضوء الأسود من مكمنه.. فربما سيجد طريقه إلي ويسلبني حياتي.. لقد حدث هذا مع القط.. وقد يحدث معي أيضا.. رغم أنني بت لا أمانع هذا في واقع الأمر.. بل أتمناه!!.. ربما أفتح الصندوق في القريب العاجل اذا اختمرت فكرة الانتحار في رأسي.. أما زيارة الطبيب فلن تجدي بالطبع.. ماذا سأخبره؟!.. سيموت ضحكا على قصتي ويتهمني بالجنون.

أخبر (غادة) بذلك.. فتنظر إلي بأسى وتخبرني بيأس أنني إنسان غير مستقر.. وشخصيتي متقلبة غير مفهومة.. وتطلب مني أن أجد حلا لحالتي الغريبة هذه.. بعد أن أصبحت كالمدمن الذي يعرف إلى أين يقوده إدمانه.. لكنه لا يملك الإرادة للتوقف عن التعاطي بنفس الوقت.. الفارق هنا أنني لا أتعاطى شيئا!!.

فأنظر إليها بيأس مماثل وبطريقة توحي أنني لا أعرف ما يتوجب فعله.. لتتركني وحيدا في صالة الشقة.. وتذهب إلى غرفة النوم بعد أن تصفق الباب بقوة.. ومن هناك أسمعها تبكي وتندب حظها الذي لم يبتسم لها يوما على حد قولها..

وأن المال الذي نملكه لم يعوضها للحظة عن الدفء الأسري الذي احتاجته طوال حياتها ولم تجده.. كلام حزين مؤلم.. لكني أسمعه ولا أكترث.. وكأنها تتحدث عن شخص آخر!!.

لا أعرف لماذا تذكرت فيلم (المحطة الأخيرة) (Final Destination) بكل أجزائه.. حين ينجو أبطال الفيلم من موت محقق.. لكن الموت نفسه يطاردهم ويحصدهم بعدها واحدا تلو الآخر!!.. إنني في ظلام دامس لا أعرف إلى أين سيأخذني.. كيف أفهم هذا الظلام إذا كنت لا أستطيع تسليط الضوء عليه.. لأن الظلام سيختفي وقتها.. هل أدرس الظلام في الظلمة؟!.. كيف سأفعل هذا؟!.. سأحتاج إلى عيون خارقة كي ترى خلاله وتفهم ما فيه.. وأنا فقدت القدرة الآن على التحليل المنطقي.. وبت عاجزا عن التفكير!!.

كم ظللت على هذا الحال؟!.. أسبوعين ربما.. أو أكثر قليلا.. حتى باتت (غادة) تخشى أن أموت جوعا وعطشا.. فوصل بها الأمر أن تضع الطعام في فمي بالقوة.. ورغم ذلك.. لم آكل سوى القليل جدا غير مكترث لتحذيراتها المستمرة من أنني فقدت الكثير من وزني وبات منظري غير طبيعي..

وكأنني كهل يعيش آخر أيام حياته.. كل هذا من دون إبداء أي ردة فعل مني.. مما جعلها تنفجر بوجهي لأول مرة بعد أن طفح بها الكيل.. وبدأت تصرخ وتبكي وتقول أنها لم تعد تحتمل جو العزاء الغريب الذي تعيشه معي.. وأنها سترحل إلى الأبد لو ظللت أتصرف بهذه الطريقة وهذا اليأس.. لم أكن أعلم أنها جادة بكلامها.. وأن تلك الليلة تحديدا ستكون الأخيرة التي أراها فيها!!.

ففي اليوم التالي.. استيقظت صباحا لأجد رسالة منها كتبتها على ورقة وتركتها على السرير.. تقول فيها:

((لم أشأ التواصل معك عبر هاتفك لأنك لا تستخدمه مؤخرا.. فتركت لك هذه الرسالة الورقية لأخبرك أنني رحلت من هنا ولن أعود.. وقد أخذت ربع المبلغ الموجود في الخزنة لأعيش بقية حياتي وحيدة -كما كنت دوما- وفي أمان مادي.. المعذرة كوني لم أستأذنك.. لأنني بصراحة بت أخشى ردود أفعالك.. فلا يمكن التنبؤ بتصرفاتك التي لم تعد تخضع لأي منطق.. وعموما فإن ما تبقى لك من مال يكفي كي تعيش بأمان مادي بدورك طوال حياتك.

إنك غريب الأطوار.. وتخفي أمرا ما.. تصرفاتك تقول ذلك.. أنا لا أعرف كيف طاوعتك وساعدتك على القيام بتجربتك.. ربما لأنني ظننت أن حياتنا ستستقر بعدها.. لكني كنت مخطئة كما هو واضح.. لقد أبلغت الحارس أنني سأرحل من الشقة من الآن ولن أعود.. وقد دفعت له كل المستحقات المطلوبة.. وأخبرته أنك ما زلت موجودا.. تستطيع توقيع عقد إيجار جديد للشقة باسمك لو أردت البقاء فيها.. أما أنا فأرغب بالطلاق.. أرجوك نفذ لي طلبي هذا.. تستطيع التواصل معي عبر هاتفي للاتفاق على الذهاب للمحكمة معا.. وسأختفي بعدها من حياتك.. أعدك.. وداعا إلى الأبد)).

حسنا.. هذا حقها.. ولن يهمني كثيرا إن أخذت المال كله.. هناك شيء مفقود في حياتي.. شيء أجهله.. والرغبة بالانتحار تزداد بتسارع لا يتوقف.. أفهم أن البعض ينتحر يأسا.. أو حزنا.. لكن أن تنتحر اشتياقا للموت؟!!.. فأنا أشتاق إلى الموت!!.. وكأنه صديق قديم لم أزره منذ مدة طويلة لأسباب خارجة عن إرادتي.. والآن أبحث عن عنوانه لأصل إليه وأرتمي في أحضانه!!.

لماذا إذا لا أفتح الصندوق كي يخرج منه الضوء الأسود ليأخذ

حياتي وأنهي الأمر؟!.. لأنني -وبعد تفكير- اكتشفت أنه لا يوجد أي ضمان بموتي بهذه الطريقة.. فقد تم إنعاشي من الغاز القاتل.. أي أن عامل الوفاة لم يعد موجودا بالنسبة لي.. وليس كما حدث في تجربتي مع القطين اللذين ظلا مطعونين ولم أعالجهما.. والأهم من ذلك.. أنا بصراحة لا أملك حاليا القوة البدنية التي تسمح لي بحمل -أو حتى دفع- جهاز التلفاز الثقيل من على الصندوق.. هناك حلول أسهل للموت طالما أنني لا أخشى شيئا.

لهذا السبب.. وجدت نفسي أنهض وأرتدي أبسط ثياب لدي للخروج.. لأذهب بطريقة آلية إلى باب الشقة.. ثم أخرج من العمارة السكنية متجها إلى الشارع.. من يقترب مني سيشعر بالقرف من رائحتي كوني لم أستحم منذ أيام.. بل أن (غادة) كانت تضع يدها على أنفها حين تقترب مني وتحاول إطعامي في الآونة الأخيرة.. لكني لم أعد أكترث.. فهناك من هو منشق عن حزب.. وهناك المنشق عن نظام.. أما أنا فأشعر أنني منشقّ عن البشرية بأكملها!!.. وكأنني أتحول تدريجيا إلى شخص آخر!!.. ولا أدري لماذا تذكرت تلك الطفلة الهندية التي تحولت بدورها إلى شخص آخر منذ سنوات طويلة.. وأثارت

ضجة هائلة آنذاك*.. إن معلوماتي غزيرة بعد كل ما قرأته

---

* يتحدث هنا عن الطفلة (شانتي ديفي) (Shanti Devi) التي ولدت عام 1926 في إحدى ضواحي مدينة (دلهي) الهندية.. فقد كانت طفلة طبيعية لا تختلف عن بقية الأطفال.. لكن في سن الرابعة تحديدا.. حدث تحول غريب في حياتها.. حين وقفت (شانتي) أمام والديها فجأة ذات يوم لتخبرهم أن اسمها الحقيقي هو (لوغدي) وأنها متزوجة ولها طفلان قبل أن تموت منذ عشرة أعوام تقريبا!!!.. بل وراحت تصف حياتها السابقة بدقة رغم صغر سنها!!.. في البداية ضحك والداها.. وظنا أن ما تقوله ابنتهما مجرد خيالات أطفال.. لكن (شانتي) ظلت عدة أيام تصر على كلامها.. حتى أخذ الجيران يتهامسون عن الأمور الغريبة التي ترويها الطفلة عن نفسها.. منها حديثها عن موتها في حياتها السابقة.. فكانت عيونها تدمع وهي تصف تلك الغرفة البيضاء التي فارقت فيها الحياة.. وعن بكاء ابنها الرضيع الذي ولدته قبل وفاتها بفترة قصيرة بسبب مضاعفات الولادة القيصرية!!.. فأثار الأمر مخاوف والديها بعد إصرار الطفلة المستمر على كلامها لمدة وصلت إلى السنتين تقريبا!!.. ليقرر والدها أن يأخذها إلى أحد الأطباء للتأكد من سلامتها العقلية.. وفي البداية.. ضحك الطبيب من مخاوف الأب وأخبره أن الخيال الجامح أمر عادي جدا لدى جميع الأطفال.. إلا أن تلك السخرية سرعان ما تحولت إلى دهشة حين استمع الطبيب بنفسه إلى كلام الطفلة.. فأخبر والدها صراحة أن ما تقوله ابنته أكبر بكثير مما تستطيع أن تتخيله فتاة في عمرها.. ومنذ ذلك اليوم.. أدرك والدا (شانتي) أن كلام ابنتهما ربما يكون أكثر من مجرد خيالات أطفال.. فاقترح أحد أقارب (شانتي) أن يتم إرسال خطاب إلى زوجها المزعوم في مدينة (ماتورا) الهندية.. وإلى العنوان الذي تدعيه.. كي يطلبوا منه -إن كان له وجود فعلي- القدوم إلى (دلهي) للتحقق من ادعاءات الطفلة.. وقد تفاجأ الجميع بعد عدة أسابيع ببرقية من مدينة (ماتورا) يبلغهم كاتبها أن ما جاء في رسالتهم حول مزاعم (شانتي) عن حياتها السابقة صحيح تماما!!!.. كما زعم كاتب الرسالة أنه زوج (لوغدي) وأن أحد أقاربه القاطنين في (دلهي) سيزور عائلة الفتاة قريبا لرؤيتها والتأكد مما تقوله.. وقد سببت البرقية صدمة كبيرة لعائلة (شانتي).. فبدأ الجميع ينظر للطفلة على أنها معجزة حقيقية.. وأن هناك سرا كبيرا خلف كلامها وادعاءاتها.. وبعد بضعة أيام.. طرق باب عائلة (شانتي) رجل غريب ميزته (شانتي) على الفور على أنه ابن عم زوجها!!!.. وقد أصيب الرجل بدهشة شديدة كون الطفلة تعرفته بسهولة.. فطلب منها أن تعطيه المزيد من الدلائل لتثبت صحة مزاعمها بشأن حياتها السابقة.. ولم تتردد (شانتي) لحظة واحدة في الرد.. فأخبرته بالتفصيل عن شكل منزلها في مدينة (ماتورا) وعن أوصاف زوجها وعمله.. وذكرت أسماء أبنائه وأقاربه وأصدقائه.. وحين=

=انتهت من الكلام.. أطبق صمت رهيب على الغرفة.. وبدا الرجل مصعوقا مما سمع.. فقد اقتنع بقصتها واعتبر أن الطفلة (شانتي) عبارة عن تجسيد حقيقي لروح (لوغدي)!!.. لذا.. ما إن عاد إلى مدينة (ماتورا).. حتى توجه إلى منزل زوج (لوغدي) وحثه على زيارة (دلهي) ليتأكد بنفسه من صدق الطفلة.. وقد قام زوج (لوغدي) بزيارة مدينة (دلهي) مع ولده فعليا للقاء الطفلة.. فما إن رأته.. حتى انحنت له كما تفعل الزوجات الهنديات مع أزواجهن في ذلك الوقت.. ثم نظرت (شانتي) إلى الولد.. لتترقرق الدموع في عينيها وترتمي عليه تحتضنه وتقبله وسط دهشة الفتى والحضور!!.. بل وأخذت تناديه بـ(ولدي) رغم إنها أصغر منه سنا!!!.. وحين سألها الزوج بشيء من الشك عن كيفية معرفتها للولد رغم إنه كان حديث الولادة حين توفيت.. أجابته بأن أطفالها جزء من روحها وأنها مثل كل أم.. تستطيع تمييز ولدها بمجرد رؤيته!!.. وراحت تتحدث مع الزوج عن أمور خاصة جدا لا يعرفها أحد غيرهما.. حينها فقط.. تأكد الزوج أن روح زوجته الميتة (لوغدي) قد حلت فعلا في جسد (شانتي)!!.. لكن.. لم يكن بيده أن يفعل سوى أن يتركها ويرحل.. رغم إنها تعلقت بيده وتوسلت إلى والدها أن يدعها تذهب مع زوجها.. ولم تلبث قصة (شانتي ديفي) أن انتشرت في جميع أرجاء (الهند).. وأخذت الصحافة تكتب عنها.. حتى وصلت أصداؤها إلى الزعيم الهندي (غاندي) نفسه!!.. ليأمر بتشكيل لجنة مكونة من 15 رجلا.. وطلب منهم دراسة قصة الطفلة بشكل تفصيلي.. حيث التقى أعضاء اللجنة بالطفلة واستمعوا إليها.. ثم طلبوا من عائلتها السماح لهم بأخذها إلى مدينة (ماتورا) كي يتأكدوا بأنفسهم من مزاعمها.. وهناك.. اتسعت عيونهم دهشة.. فقد كانت (شانتي) تتصرف وكأنها مقيمة في تلك المدينة منذ سنوات طويلة.. إذ كانت تعرفت أسماء الشوارع.. وتعرف الحي الذي يقيم فيه زوجها جيدا.. بل وتعرف الجيران أيضا!!.. فقامت اللجنة بإصدار تقريرها الذي أعلنت فيه صراحة أن القضية قد تكون متعلقة بتناسخ الأرواح.. وقد ساهم هذا التقرير الذي نشرته الصحف في تسليط الضوء على قصة الفتاة.. والتي اتخذها مؤيدو نظرية تناسخ الأرواح كدليل حي وقوي على صحة اعتقادهم الذي ترفضه الأديان السماوية.. لكن.. ومع مرور الوقت.. راح بريق تلك القضية يخبو شيئا فشيئا.. وتناساها الإعلام تدريجيا .. أما (شانتي).. فقد استسلمت للواقع.. وعلمت أنها مهما تحدثت ومهما توسلت.. لن يتغير شيء في هذه القضية الغريبة.. ليصبح الأمر برمته في طي النسيان لسنوات طويلة جدا.. وفي عام 1987.. حاولت إحدى وسائل الإعلام إحياء القضية مرة أخرى.. فقامت بإجراء لقاء تلفزيوني مع (شانتي) التي أصبحت عجوزا آنذاك.. واللقاء موجود على موقع (youtube).. الغريب (شانتي) توفيت بعد هذا اللقاء بحوالي 4 أيام فقط بفعل عامل السن.. علما بأنها لم تتزوج أبدا لأنها كانت مقتنعة أن روح زوجة (لوغدي) قد حلت بها.

من كتب في السجن.. لقد كانت الأمور أوضح كثيرا بالنسبة لي آنذاك.. حتى وإن كنت مجرما ورب عائلة سيئا.. لكني على الأقل كنت أعرف من أنا.. أما الآن.. فأشعر أن حياتي تشبه خدعة الصندوق الكبير الذي تفتحه وتجد صندوقا آخر أصغر حجما.. لتفتحه وتجد صندوقا آخر أصغر منه.. ثم آخر.. وآخر.. إلى أن تصل إلى الصندوق الصغير الفارغ.. وكأنني ذلك الصندوق تحديدا.. أفكر بهذا وأنا أسير بين طرقات منطقة (الفروانية) متجها إلى أحد الشوارع العامة كي ألقي بنفسي أمام السيارات.

يقال أن الضحك من دون سبب قلة أدب.. ماذا عن البكاء من دون سبب؟!.. لأنني أبكي الآن من دون سبب بعد أن وصل الاكتئاب إلى أقصى درجاته.. الدموع تنهمر من عيني.. وأنا أقدِم على آخر ما أتوقع فعله يوما.. إذ وجدت نفسي أقف بثبات وأغمض عينيّ.. ثم.. أطلق ساقي إلى الشارع العام وسط السيارات التي تسابق الريح بسرعتها.. أشعر بالارتطام الذي جعلني أطير من مكاني.. سيارة تقذفني بكل قوتها.. ربما سيظن الناس أنه مجرد حادث دهس وليس انتحارا.. لا يهم.. هناك سيارة أخرى تمر فوقي بكل ثقلها.. لكن الذهول في لحظات كهذه يتغلب على الألم.. فلم أشعر بشيء.

ذاكرتي تسترجع أحداثا قديمة من حياتي أشاهدها في عقلي الباطن وروحي تبكي بحرقة.. ابنتيّ.. زوجتي السابقة.. (غادة).. سامحوني جميعا.. فأنا نفسي لست سوى ضحية.. مهلا.. لماذا هذا السكون؟!.. لماذا لا أشعر بأي ردود أفعال من المارة؟!.. هل هي ظاهرة (تأثير المتفرج) كما يطلقون عليها؟!*.. لا.. إنني أسمع صراخهم حولي.. وهناك من ينادي طلبا للشرطة أو الإسعاف.. لكن.. كيف سأموت والضوء الأسود محبوسا في ذلك الصندوق؟!.. أعتقد -لست متأكدا- أنني طرحت هذا التساؤل سابقا في سياق قصتي ولم أعثر له على إجابة.. ربما سأعرف الإجابة الآن.. وبالطريقة الصعبة (The Hard Way) كما يقول الأجانب.. كان هذا آخر ما طرأ في ذهني قبل أن أغيب عن العالم.

---

* (تأثير المتفرج) (Bystander Effect) ظاهرة نفسية تشير إلى امتناع الشخص عن تقديم أي مساعدة للضحية إذا كان هناك حاضرون آخرون.. والأسباب عديدة.. منها الصدمة النفسية.. والخوف.. والشعور بعدم القدرة على اتخاذ قرار سريع أمام جموع من البشر.. وقد تحدث عن هذه الظاهرة أول مرة دكتور علم النفس (جون دارلي) (John M. Darley) بعد حادثة قتل فتاة تدعى (كيتي جينوفيز) (Kitty Genovese).. حين طعنها رجل حتى الموت خارج شقتها أمام 38 شخصا من دون أن يبادر أحد منهم بالمساعدة أو إبلاغ الشرطة.. ويقول المختصون أنه كلما زاد الحضور البشري.. قل التفاعل مع حوادث كهذه.. خاصة وأنها تستغرق عادة لحظات قليلة جدا.. قبل أن يعود الناس إلى صوابهم تدريجيا ويتصرف أحدهم على الأقل.

لقد علمت أنني لم أمت حين استرجعت وعيي بعد فترة من الزمن أجهل كم طالت.. عندما شعرت فجأة بالعالم من حولي.. لكني لم أتمكن من فتح عينيّ من شدة الإرهاق والإصابات البليغة التي تعرضت لها.. إذ كنت أعجز تماما عن تحريك قدمي أو يدي.. ثم.. انتبهت تدريجيا إلى أنني في المستشفى بسبب حديث الممرضين والأطباء عن حالتي.. وأن شخصا مثلي يفترض ألا يكون على قيد الحياة بعد ذلك الحادث الرهيب.. وإن نجاتي تعد لغزا على حد قولهم!!.. بالطبع.. فوجود الضوء الأسود محبوسا في ذلك الصندوق له علاقة مباشرة ببقائي حيا رغم كل ما تعرضت له.

كنت في حالة غامضة بين الوعي والغيبوبة والنوم.. ولم أكن أعرف مدى سوء إصاباتي الجسدية.. وما إذا كانت هناك أي عاهات مستديمة.. فقد كنت عاجزا عن التحرك.. وكأنني أصبت بشلل كامل.. ماذا عن رغبتي بالموت؟!.. من الصعب الإجابة على ذلك السؤال وأنا في هذه الحالة المزرية التي جعلت عقلي نفسه يذوب في الفراغ.. لكن.. أعتقد أن الرغبة ظلت موجودة!!.

لا شك أن الشرطة تنتظر شفائي للتحقيق معي.. أو ربما قاموا باستدعاء (غادة) لسؤالها عني.. لا أظن أنها ستكون على

هذه الدرجة من الغباء كي تتحدث عن (الضوء الأسود) وكل ما مررنا به.. ستصبح مثار سخريتهم لو فعلت.. قد تكتفي بإبلاغهم أنها خرجت من حياتي بعد أن تغيرت سلوكياتي وأصبحت مختلفا.. وفي نهاية المطاف.. سيعرف رجال الشرطة من تحقيقاتهم ومن شهود العيان أنها محاولة انتحار.. وأن هذا الرجل -أنا- أصيب باضطراب نفسي غير مفهوم مؤخرا.. وأنه ذو سوابق وخريج سجون وقد تركته زوجته وابنتاه.. ثم تركته زوجته الجديدة.. فأي شيء غير معتاد سيقدم عليه لن يكون غريبا.. أو.. قد يمر الأمر عليهم ويحسبونه حادث سير عاديا.. لا يهم.

بعيدا عن كل هذا.. ومهما كانت حالتي سيئة.. فإن الأطباء سيملكون كل الوقت لعلاجي.. ولو عجزوا.. أتمنى أن أتحسن إلى درجة تجعلني قادرا على التواصل مع (غادة) كي أطلب منها أن تفتح الصندوق لتخرج الضوء الأسود حتى يصل إلي لأموت وأرتاح بدلا من أن أعيش عاجزا طوال العمر!!.. أو ربما تزورني بنفسها إذا علمت بأمر الحادث.. وستعرف حينها من الأطباء أنني أعاني كثيرا وحالتي خطرة غامضة.. فتتخذ القرار بنفسها وتخلصني من آلامي رأفة بي.

لا أعرف كم بقيت على هذه الحالة.. بضعة أيام أو أسابيع ظللت خلالها في فراشي عاجزا عن مغادرته.. إذ لم أكن أستعيد وعيي إلا في فترات قليلة متقطعة.. ولم أفتح عيني سوى مرة أو مرتين كنت أرى خلالها سقف الغرفة فحسب.. لأعود بعدها وأغمض عيني من شدة الإرهاق.. وأحيانا أفقد وعيي.. كما كنت عاجزا عن الالتفات لأي جهة بسبب الآلام المبرحة في عمودي الفقري ورقبتي.. لا شك إن طاقم التمريض هو من يتولى أمر أكلي وشربي وقضاء حاجتي من خلال أنابيب كثيرة تدخل وتخرج من جسدي كما هي العادة مع من هم بمثل حالتي.. إلا أن تركيزي العقلي تحسن مع مرور الوقت.. وبت قادرا على التفكير والتحليل بصورة أفضل.

وقد ظللت أتساءل إن كان أحدهم سيزورني.. أحد أقاربي.. أو.. (غادة).. أم أنها ستفضل الابتعاد بدورها؟!.. الأيام القادمة كفيلة بالإجابة على السؤال.. هكذا ظللت أردد في قرارة نفسي.. حين سمعت ذات يوم صوتا هادئا يشوبه التوتر يهمس في أذني:

- (ناصر).. احم.. (ناصر).. حمدا لله على سلامتك يا صديقي.. أتمنى لك الشفاء العاجل!!.

نعم.. اسمي (ناصر) أيضا.. كاسم صديقي الذي بدأت من خلاله القصة كلها.. المعذرة كوني لم أذكر ذلك سوى الآن.. لحسن الحظ أنني لم أكن غائبا عن الوعي حينها.. ففتحت عيني بصعوبة لأعرف هوية الزائر.. كانت هذه المرة الأولى التي أنتبه فيها أنني أنظر للعالم بعين واحدة فقط.. وأن عيني الأخرى ملفوفة بالضماد.

المهم الآن.. الموقف الذي أمر به يبدو مألوفا للغاية لي ولكم كما هو واضح.. فقد عشته بنفسي من قبل!!.. لا.. الأمر أكبر من ذلك ولا يتعلق بتشابه المواقف فحسب.. هل.. هل أنا أهلوس؟!.. لأن ما أراه أمامي خارقا للعادة ويتحدى المنطق.. ولا يمكن لأكثر العقول خيالا أن تتصوره!!!.. حتى أنني ظللت مشدوها لفترة.. قبل أن أترجم صدمتي بشهقة قوية.. لكنها توقفت في صدري لأنها كانت مؤلمة مع كل الكسور التي أعانيها.. أنا واثق أن هذه ليست خيالات مريض.. لأنني أشعر في أعماقي بقدرتي على التحليل المنطقي لما يحدث حولي رغم كل إصاباتي.

ظللت أحدق بالزائر من دون توقف.. فقط لأتأكد مما أراه.. أرجوكم لا تتهموني بالجنون لما سأقوله.. فالزائر هو.. هو أنا في واقع الأمر!!!.. إنه (أنا) آخر إن صح التعبير!!!.. إنني أرى نفسي

واقفا سليما معافى وفي نفس الثياب والحال المزري الذي كنت عليه حين زرت (ناصر) حال خروجي من السجن!!.. بل أنه كرر نفس الكلمات التي قلتها آنذاك.. فكيف يحدث هذا؟!.. (أنا) الآخر يستمر بمحاولة التحدث إلي دون أن يعرف هويتي الحقيقية بسبب الضمادات التي تغطي وجهي وجسدي كله.. ثم.. يسألني عن مكان المال وأيضا بنفس الكلمات التي استخدمْتها حين زرت صديقي (ناصر) في المرة الأولى!!.

لا يمكن أن يكون هذا الشخص توأمي مثلا.. لأن الموقف بأكمله يتكرر.. ما هو تفسير ذلك؟!.. أريد أن أصرخ وأخبر (أنا) الآخر أن ما أراه غير معقول.. أريد أن أكشف له هويتي الحقيقية وأسأله عن كيفية وجود نسختين منا في نفس الوقت والمكان!!.. فتخرج مني كلمات هامسة منهكة مبعثرة عجزت عن ترتيبها في جملة مفيدة.. لا شك أن الكمام الذي يغطي وجهي زاد الأمر سوءا.

هذا غير ممكن.. حتى المجنون لا يمكن أن يرى في خياله ما أراه الآن.. أحدنا محتال من دون شك.. فمن هو؟!.. أحاول أن أجمع أفكاري وتركيزي لأتأكد أكثر أن ما أراه ليس هذيان مريض.. غريب أن البعض يبحث عن تفسير لأحلامه.. أما أنا.. فأحتاج لمن يفسر لي الواقع!!.. أكرر وأؤكد.. لست نائما..

ولم أكن أحلم.. الذي يزورني هو (أنا) آخر!!.

لحظات من الصدمة.. ثم أحاول للمرة الثانية أن أستجمع قواي وأقول هامسا خلف الكمام الذي يغطي نصف وجهي:

- أيها الأحمق.. لست صديقك (ناصر).. أنا هو أنت!!.. نحن شخص واحد.. لكنا نتواجد في مكانين مختلفين لسبب لا أفهمه.. أحدنا يصارع الموت والآخر سليم معافى.

يبدو أنه لم يفهم ما أردت قوله.. فيحاول أن يرهف السمع.. لكن.. صوت أنثوي يقول فجأة وبلغة عربية ركيكة:

- ماذا تفعل؟!.. لا يمكنك التحدث إليه!!.

إنه.. إنه ذات الموقف يتكرر أيضا.. الممرضة تدخل الغرفة وهي تذكّر (أنا) الآخر أن عليه الرحيل فورا.. ليرحل فعليا وهو مضطرب للغاية.. يا عالم.. أحدكم يفسر لي كل هذا!!.. أغمض عيني وأغرق في أفكاري الذاتية.. وكأن كميات ضخمة من حمض الإدرينالين تدفقت إلى عقلي -إن كان هذا صحيح علميا- وساعدتني لأفكر بعمق وأفهم ما يدور حولي.. أبحث عن إجابة لهذا اللغز.. أحاول أن أسترجع أحداث حياتي كلها.. مرورا بخروجي من السجن.. وانتهائي على سرير المستشفى.. ثم حضور (أنا) آخر ليتحدث إلي على أنني صديقه (ناصر)..

أفكر وأفكر.. وقد استسلمت تماما للممرضات وهن يدخلن بين حين وآخر لقياس الضغط وفحص جسدي ووضع الأدوية في وريدي.. من دون أن تصدر مني أي ردة فعل.. هناك إجابة ولا شك.. لكن ما هي؟!!.

إنني أنتبه في هذه اللحظة فقط لأشياء كثيرة لم أعرها أي اهتمام سابقا!!.. فقد كنت أشعر منذ خروجي من السجن أن كل موقف أمر به مألوف إلى حد ما.. وكأنني أعيش نوعا من ظاهرة (ديجافو)* الشهيرة.. ربما مررتم بهذا الشعور وتعرفون ما أعنيه.. الفارق هنا أنني لا أتحدث عن موقف واحد كما هي العادة في جميع حالات (ديجافو) تقريبا.. إنما شعور

* (ديجافو) (Deja vu).. لفظة فرنسية شهيرة جدا وتعني (شوهد من قبل).. ويعتبر الباحث الفرنسي (إميل بويراك) (Émile Boirac) أول من استخدم هذا الاسم في المجلة العلمية (Revue Philosophique) عام 1876.. لكي يصف الحالة النفسية الغامضة التي تشعر بها حين تتعرض لموقف وتكون متأكدا من أنك تعرضت له سابقا بكل تفاصيله الدقيقة.. وذلك على الرغم من أنك لم تتعرض له إطلاقا من قبل!!.. أو أن تزور مكانا تحسب أنك زرته مسبقا على الرغم من أنك لم تزره في حياتك.. تقول إحدى النظريات أن السبب في ذلك يعود إلى خلل مجهول يصيب الدماغ فيجعله يسجل في ذاكرتك -من دون أن تدري- بعض الأحداث التي لم تحدث لك.. وإذا عشت تلك الأحداث مستقبلا تظن أنك مررت بها في الماضي.. وتقول نظرية أخرى أن الأمر بسيط لا يتجاوز تشابه المواقف فحسب.. مثل تشابه البدايات بين موقفين أو تشابه العواطف في موقفين.. فتظن أن الموقف الذي تعيشه مكررا لكنك لا تذكر بالضبط متى عشته في المرة الأولى.. لكنها في النهاية تبقى مجرد نظريات غير مثبتة علميا.. وتقول إحدى الإحصائيات أن ثلثي البشر تقريبا مروا بحالة (ديجافو) مرة واحدة في حياتهم على الأقل.

مستمر لا يتوقف على مدى اليوم.. لا أعرف إن كان شيء كهذا ممكنا*!!.. لكنه ظل يحدث معي.. ولم يتوقف حتى في فترات نومي!!.. نعم.. فأحلامي نفسها كانت تبدو لي مألوفة أيضا.. وكأنني حلمت بها سابقا.. وأنا لا أفهم في واقع الأمر كيف يعاني المرء من حالة (ديجافو) في أحلامه!!.. ورغم أن الأمر كان مرهقا ذهنيا حينها بالنسبة لي.. إلا أنني تجاهلته.. تماما كما يتجاهل البعض آلام الظهر أو أي آلام أخرى تصيبه أحيانا.. دون أن يسعى لعلاجها.. بل يتعايش معها فحسب.

هناك نقطة أخرى أنتبه لها للتو.. فلا شك أن معظمكم تساءل بشيء من الاستغراب عن اكتشافي لمكان المال بطريقة سهلة نسبيا في شقة (ناصر).. وإصراري الشديد على تنفيذ

---

* يجب التنويه هنا أن الأطباء في (بريطانيا) اكتشفوا منذ سنوات قليلة حالة غريبة جدا شبيهة بحالة بطل قصتنا.. وهي لشاب جامعي يعاني من حالة (ديجافو) مستمرة لم تتوقف لأكثر من 7 سنوات!!.. وقد ظل الأمر يزداد سوءا بالنسبة له.. إلى أن وصل إلى حد لا يطاق.. فطفح به الكيل وفقد تركيزه.. وبات ذهنه مشوشا طوال الوقت.. مما جعله يضطر لترك دراسته الجامعية.. وقد وصف الشاب هجمات (ديجافو) هذه -على حد قوله- بأنها تصيبه أحيانا للحظات قليلة.. وأحيانا أخرى لفترات طويلة متقطعة في اليوم الواحد!!.. حتى أنه ابتعد عن كل وسائل الإعلام ليتجنب هذا الشعور قليلا.. فكل ما يشاهده في التلفاز أو يقرأه في الصحف يبدو مألوفا بالنسبة له.. وحتى المواقف اليومية العادية باتت تسبب له ذات الشعور.. وقد أجرى له الأطباء فحوصات عديدة.. لكن لم يتبين لهم خلالها أي خلل في دماغه!!.. تقول دكتورة علم النفس (كريستين ويلز) (Christine Wells) أن هذه الحالة تعتبر الأولى من نوعها في العالم.. وقد يتطلب الأمر بعض الوقت لفهمها على أمل أن يتم التوصل لعلاج الشاب.

تجربة عزل الضوء الأسود عني رغم خطورتها.. وبذل كل هذا الجهد من أجلها.. خاصة وأننا نتحدث عن المخاطرة بحياتي نفسها.. فهذا تصرف لا يرتكبه رجل دخل عالم الثراء فجأة.. وتزوج للتو.. وانتهت كل مشاكله الماضية.. دعكم من ملاحقتي المريبة لـ(غادة).. والتي ظننت حينها أن سببها الوحدة فقط والرغبة بالارتباط بأي أنثى.

الحقيقة أن كل هذه التصرفات لم تكن وليدة أفكاري.. بل كنت مدفوعا لتنفيذها ومسيّرا بطريقة ما.. وكأن دماغي عبارة عن هوائي لاقط تم ضبطه بصورة دقيقة ليستقبل المعلومات ويقوم بتنفيذها.. أو أن أحدهم يرسل لي إشارات من المستقبل ليدلني طريقي في الحياة.. لقد شاهدت ذات مرة في التلفاز أحدهم يتحدث عن جهاز يقوم بهذا الغرض*!!!.

بغض النظر عن السبب.. ما أريد قوله أنني لم أنتبه حينها لهذا الدافع الذي يسيطر علي ويقودني.. وأرجأت أفعالي إلى تفكيري وذكائي المزعوم وقراءتي للأحداث فحسب.. لكنني في الواقع لم

---

* يتحدث هنا عن (الهاتف التاكيوني المضاد) (Tachyonic antitelephon).. وهو جهاز افتراضي يقوم بإرسال إشارات إلى ماضي شخص ما لتنبيهه بالأخطاء التي سيرتكبها لاحقا في حياته كي يتجنبها.. وأول من طرح فكرة الجهاز العالم الشهير (آينشتاين).. حين تحدث عن إمكانية توصل العلماء لشيء كهذا في المستقبل البعيد.. حيث يقوم الجهاز بإرسال المعلومات على هيئة صور ضوئية وبسرعة أكبر من سرعة الضوء إلى الشخص المطلوب في الماضي.

أكن أصنع الخيارات.. بل الخيارات هي التي كانت تصنعني!!!.

ومع هذه الأشياء الدقيقة التي انتبهت لها.. بدأت بعض الذكريات تخرج من الزوايا المنسية من عقلي!!.. ذكريات لم أكن أعرف أنها موجودة في رأسي أصلا!!.. إنها تظهر على صورة ومضات متقطعة.. أحاول أن أجمعها لأكون منها قصة مفهومة.. ربما ساعدني على ذلك وجودي المستمر على السرير وانقطاعي عن العالم.. مما لا يسمح لي بأي شيء سوى التفكير.. كما أن ظهور نسخة أخرى مني ساهم بوضعي في لحظة تنويرية.. كأن تسمع بداية مقطع لأغنية شهيرة.. فتعرف بقية اللحن من تلقاء نفسك!!.

إنني أتذكر الآن تلك القصة الغريبة.. عن ذلك الرجل الذي استيقظ من نومه أو غيبوبته -لا يعلم- ليجد نفسه مستلقيا في مكان ضيق مظلم وهو على وشك الاختناق!!!.. إنه لا يعرف من حبَسَه هنا ولأي غرض.. ولا يعرف كيف وصل إلى هذا المكان الذي لم يكتشف ماهيته بعد.. ثم ينتبه فجأة أنه لا يتذكر شيئا من حياته.. فيشعر بالذعر من اقترابه لمرحلة الاختناق بسبب نقص الهواء.. يحاول أن ينقذ نفسه.. يدفع الباب الموجود أمامه على أمل الخروج.. مرة.. مرتين.. يضربه بقبضته بقوة.. أشياء كثيرة تسقط على الأرض في الخارج محدثة ذلك الضجيج.. إلى أن يتمكن الرجل من الخروج من

سجنه أخيرا.. ليكتشف أنه كان مسجونا في صندوق مصنوع بالكامل من الرصاص.. وفي مكان يجهله.. وأنه عاريا تماما دون أي ثياب تستره!!.

يفتح فمه ويحاول أن يملأ رئتيه بأكبر قدر من الهواء.. إلى أن انتظم تنفسه أخيرا.. فينظر حوله بذعر دون أن يعرف أين هو.. يحاول أن يتذكر.. أو يعرف هويته على الأقل.. لتبدأ أحداث سابقة من حياته تنساب إلى عقله تدريجيا.. وكأن هناك شرخا كبيرا في ذاكرته وقد بدأ يندمل.

إنه يتذكر الآن زوجته السابقة وابنتيه.. ويتذكر مكان إقامتهن.. فيبحث سريعا عن ثياب تناسبه وهو يلتفت طوال الوقت خوفا أن يكون المسؤول عن سجنه متواجدا في نفس المكان.. لكنه لا يجد أحدا.. ثم.. يرتدي ما عثر عليه من ثياب.. ويأخذ معه محفظة عثر عليها في هذا المكان أيضا مع هاتف نقال.. لم يعبث بالمحفظة ليعرف هوية صاحبها.. بل وضعها في جيبه بعد أن تأكد من وجود بعض المال فيها.. فقد كان كل ما يهمه الخروج بأسرع وقت.. لأنه لا يعرف ما سينتظره لو ظل في هذا المكان الذي اتضح له أنه عبارة عن شقة صغيرة!!.

يخرج الرجل ويرى نفسه في شارع عام وسط عمارات سكنية.. لا أحد يلتفت أو يكترث له.. يبحث عن سيارة أجرة.. فلا

يجد.. يفتح الهاتف النقال ليطلب واحدة.. يريد أن يذهب إلى زوجته وابنتيه بسرعة.. لعل إحداهن تعرف ما يجري له.. لكن.. الهاتف يحمل رقما سريا ككل الهواتف.. فيكتشف أنه يعرف الرقم السري!!.. إذ وجده في عقله فجأة دون أن يفهم كيف حدث ذلك.. يرجئ التفكير بهذه النقطة مؤقتا.. يطلب سيارة الأجرة وقلبه يدق بعنف.. لحسن الحظ لم تتأخر.. فركب بسرعة حال وصولها وأمر السائق أن يذهب به فورا إلى عنوان زوجته السابقة وابنتيه.. الصداع يكاد يمزق رأسه.. فيستند على نافذة السيارة وينام بعمق طوال الطريق.. أو لنقل أن عقله وقع في تلك المرحلة الغامضة بين النوم والشرود.. وهو تحديدا ما بدأت به قصتنا!!!.

لم يكن الرجل يعلم أن سبب الصداع الرئيسي هو ذكرياته التي بدأت تعود لمكانها الطبيعي كي تملأ عقله مرة أخرى.. فقد بدأ يتذكر الآن حياته البائسة كلها.. طفولته.. التحرشات الجنسية التي تعرض لها من قريبه.. مراهقته.. ثم فشله الدراسي.. وزواجه وإنجابه لابنتين.. وإساءته لأسرته.. ودخوله بعد ذلك عالم تجارة المخدرات.. وإلخ من كل ما سرده لكم في بداية القصة.

يعرف هذه الحقائق.. ولا يفهم كيف كان سيئا إلى هذا الحد في الماضي.. خاصة وأنه يرى نفسه الآن إنسان مختلف طيب

القلب ولا يريد الشر لأحد.. بالمقابل فإن ذاكرته القصيرة المتعلقة بوجوده في الصندوق منذ قليل تختلط عليه فيظن أنه كان في السجن وقد خرج منه للتو!!!.

يصل إلى وجهته.. ويحدث المتوقع.. إذ تستقبله ابنتاه بطريقة مهينة بسبب تاريخه السيىء معهما.. ويتضح له أنهما تكرهانه كثيرا.. فيشعر بالأسى لذلك.. ويذهب لزيارة صديقه (ناصر).. لكنه لا يرى منه سوى عين واحدة بفعل الإصابات التي تعرض لها من الحادث.. فلا ينتبه أو حتى يتخيل أنه و(ناصر) في واقع الأمر شخص واحد!!!.

نعم.. هذه قصتي!!.. وهذه حقيقتي.. إنني مجرد نسخة بشرية تجسدت من الضوء الأسود من (ناصر) الحقيقي!!!.. والشخص الذي زارني للتو نسخة جديدة من (ناصر) أيضا وستحل محلي بعد وفاتي!!.. وقد تجسدت من الضوء الأسود المحبوس في ذلك الصندوق في شقتي.

أرجوكم لا تتهموني بالخيال المفرط.. فهي حقيقتي مهما بدت غرابتها!!.. كيف يتجسد الضوء الأسود ويتحول إلى آدمي؟!!.. وإلى نسخة طبق الأصل من (ناصر) الحقيقي؟!.. أنا لا أرى ذلك مستحيلا.. لقد تحول الضوء العادي الذي نعرفه جميعا إلى جسم مادي ذات مرة في إحدى التجارب

العلمية*.. فما المانع من ذلك؟!.. كيف يتجسّد الضوء الأسود إلى أجزاء بشرية تصنع آدميا متكاملا كحالتي؟!.. الأمر شبيه بخلايا الجنين التي تكون كلها متشابهة في البداية.. ثم تتشكل بعد ذلك تدريجيا لتصبح مختلفة عن بعضها البعض.. فيتحول شيء منها إلى عين.. وآخر إلى أنف.. وآخر إلى ساق.. إلخ**.. لذا لا أجد الأمر مستحيلا حين يتجسد

---

* حقيقة.. وللعلم فقط فإن سرعة الضوء في الفراغ تبلغ 300 ألف كيلو متر في الثانية الواحدة.. وهي أعلى سرعة عرفها الإنسان حتى الآن.. لكن سرعة الضوء تقل حين يتخلل المواد.. إذ تبلغ سرعته في الماء على سبيل المثال 225 ألف كيلو متر في الثانية.. ومن هنا جاءت فكرة إمكانية إبطاء الضوء عمليا.. وهذا ما فعلته العالمة الدانمركية (لين هاو) (lene Hau) عام 1999 حين كانت على رأس فريق من العلماء في جامعة (هارفارد) الأمريكية.. حيث قامت بإبطاء الضوء إلى سرعة 17 مترا في الثانية فقط!!.. بعد أن جعلته يمر عبر غازات ذات كثافة عالية جدا.. كما تمكنت أيضا في عام 2001 -وبطريقة مشابهة إلى درجة كبيرة- من تحويل الضوء إلى مادة.. ثم إعادته إلى هيئته الضوئية.

** يتحدث هنا عن علم (تكوين الأشكال) (Morphogenesis).. وهو علم حقيقي اكتشفه العالم البريطاني الشهير (آلان تورينج) (Alan Turing) في منتصف القرن الماضي.. حيث كان يطرح تساؤلات لم يطرحها أحد من علماء الأحياء قبله.. منها كيفية أن تكون كل خلايا الجنين متشابهة في البداية.. ثم تتجمع بعد ذلك وتتشكل شيئا فشيئا لتصبح مختلفة عن بعضها البعض.. فتتحول أجزاء منها إلى عين وأخرى إلى أنف.. وأخرى إلى ساق.. إلخ.. والأمر شبيه بما يحدث مع باقي أجنة الكائنات الحية أيضا.. كتشكل الخلايا لتظهر البقع على البقرة.. أو الخطوط على الحمار الوحشي.. أو النقط على الزرافة.. فقد كان (آلان تورينج) يرى الطبيعة زاخرة بأكواد وأنماط مخفية عن أعيننا.. ويرى أن علم الرياضيات له القدرة على تفسيرها.. وهذا ما جعله يبتكر معادلات رياضية معقدة في عام 1952 لوصف كيفية حدوث عمليات تتسبب بها مواد كيميائية وراثية داخل الجسم.. لتتشكل خلايا أجنة جميع الكائنات الحية وتنظم نفسها بنفسها.. فيظهر كل منها بالشكل الذي نعرفه.. ويعتبر (آلان تورينج) أول من أدخل علم الرياضيات إلى علم الأحياء.

الضوء الأسود الخاص بي ويأخذ هيئتي لو تم عزله وحفظه في صندوق لمدة طويلة!!.. إنه مادي في النهاية.. والمقصود بـ(مادي) أنه يتكون من ذرات.. ككل شيء في هذا الكون دون استثناء.. سواء الكائنات الحية.. أو الجماد*.. ونحن جزءا من هذا الكون.. فلا ننسى أن النيتروجين في حمضنا

---

* حقيقة.. علما بأن الذرة هي اللبنة الأساسية لعناصر أي مادة في الكون.. صلبة أو سائلة أو غازية.. وتتكون الذرة من سحابة من الشحنات السالبة (الإلكترونات) التي تدور حول نواة موجبة الشحنة.. في حين تتكون النواة من (بروتونات) موجبة الشحنة و(نيوترونات) متعادلة.. وتعتبر الذرة أصغر جزء من العنصر الكيميائي يحتفظ بالخصائص الكيميائية لذلك العنصر.. أي أننا كلما غصنا أكثر في المادة.. لن يعود هناك فارق بين عنصر وآخر.. ولن يكون هناك أي فارق بين بروتون في ذرة حديد وبروتون آخر في ذرة يورانيوم مثلا.. وحتى ندرك مدى صغر الذرة.. يجب أن نذكر أن شعرة واحدة فقط من شعر الإنسان تتكون من حوالي مليون ذرّة كربون!!.. فالذرات هي في واقع الأمر عالمنا الغامض المصغّر.. ويوجد 118 نوع من أنواع الذرات هي التي تكوّن كل شيء في هذا الكون من خلال التفاعلات الكيميائية.. فحين تتفاعل ذرة أكسجين مع ذرتين هيدروجين سيكون لدينا مركب كيميائي اسمه الماء.. وحين تتفاعل ذرة كربون مع ذرتين أكسجين سيتكون ثاني أكسيد الكربون.. وقس على ذلك الصخور والرمال والكائنات الحية.. إلخ.. وقد يسأل البعض.. ما الذي يجعل الشيء المادي ماديا والشيء الحي حيا؟!.. الواقع أن الذرات التي تكوّن الشيء المادي تعطينا تفاعلات كيميائية ثابتة.. أما الذرات التي تتكون منها الكائنات الحية فتعطينا تفاعلات كيميائية مختلفة تتميز بـ 4 أمور أساسية.. أولها (الأيض) وهو التفاعل الكيميائي الخاص بتناول الغذاء وهضمه كي ينتج الطاقة التي يحتاجها الجسم.. والتكاثر.. ونمو الحجم.. والاستجابة للمؤثرات الخارجية.. في النهاية يجب أن نذكر أن كلمة الذرة باللغة الإنجليزية (Atom) تعود إلى الكلمة الإغريقية (أتوموس).. وتعني (غير القابل للانقسام).

النووي.. والكالسيوم في أسناننا.. والحديد في دمنا*.. وبهذا المنطق.. لا أستبعد أن تكون مكونات ذلك الضوء الأسود من المادة المظلمة** نفسها!!.. كيف لم يطرأ هذا ببالي سوى الآن؟!.

حقا أن صدمة الاكتشاف تعيد إلى المرء ذكريات كثيرة كانت خارج نطاق عقله الواعي.. ولا توجد صدمة أكبر من أن أرى (أنا) آخر يزورني في المستشفى!!!.. هذا ما جعلني أفكر بطريقة مجنونة كهذه تخالف المنطق كون ما حدث لا علاقة

---

* هذه العبارة اقتباس لـ(كارل ساغان) (Carl Sagan).. وهو مؤلف وبروفيسور أمريكي شهير جدا في علم الفلك.. وله إسهامات كبيرة في تبسيط العلوم.. وكان يقدم برنامج تلفزيوني يحمل اسم (الكون) والذي كان يشرح فيه علوم الفلك والفيزياء والأحياء ببساطة محببة.. وقد حاز (كارل ساغان) على وسام وكالة أبحاث الفضاء الأمريكية (ناسا) مرتين.. مع العديد من الجوائز الأخرى.. وربما أحد أشهر أعماله رواية (اتصال) (Contact) التي قام بإصدارها عام 1985.. حيث تم تحويلها لفيلم سينمائي حمل الاسم ذاته عام 1997 وحقق نجاحا باهرا.. كما اشتهر بمؤلفات علمية كثيرة أخرى.. منها (كوزموس: رحلة شخصية) و(كوكب الأرض نقطة زرقاء باهتة) و(بلايين وبلايين).. يذكر أنه توفي عام 1996.

** المادة المظلمة (Dark Matter) مادة كونية غامضة غير مرئية استنتج وجودها الفلكي السويسري (فريتز زويكي) (Fritz Zwicky) عام 1933.. حين قام بمراقبة ودراسة مجموعة من المجرّات العنقودية لفترة من الزمن.. فاستنتج من خلال دراساته وجود مادة هي المسؤولة عن تماسك عنقود المجرات دون أن ينفصل.. وقد أطلق عليها اسم (المادة المظلمة).. وعلى الرغم من أن استنتاجه هذا مجرد نظرية.. لكن العلماء في زمننا الحالي يرجحون وجود المادة المظلمة بالفعل.. بل ويعتقدون أنها تحتل 90% من الكون.. أي أن الكواكب والنجوم وكل شيء آخر نراه في الفضاء يفترض ألا يشكل أكثر من 10% فقط من الكون!!.

له بالمنطق أصلا.. الصورة تتضح مهما بلغت غرابتها وسخفها للوهلة الأولى.. والاستنتاج غريب جدا.. ومعقد أيضا.. لكني لم آتِ به بهذه السهولة والسرعة بالطبع.. فكما ذكرت.. أنا على فراشي في المستشفى.. لا أتحدث ولا آكل ولا أشرب.. ولا أفعل أي شيء.. هذا ما جعلني أقضي جل وقتي أفكر وأحلل ما حدث بكل دقة.

إذا.. أنا لست (ناصر) الحقيقي.. أنا مجرد نسخة منه.. ويبدو أن (ناصر) الحقيقي اكتشف الضوء الأسود وحاول أن يستفيد منه بنفس تفاصيل القصة التي حدثت لي.. لكن الضوء الأسود هذا تجسد إلى نسخة أخرى من (ناصر)!!.. أنا!!.. الآن فقط أدرك أن كل الذكريات التي أحملها في رأسي لم أعشها أصلا.. والآن أيضا أفهم لماذا كنت على ثقة أن (ناصر) احتفظ لي بنصيبي.. وأنه صديقي الحميم -كما كنت أتخيل- ويستحيل أن يغدر بي.. بنفس منطق أن يكون أحد منا على ثقة تامة أنه لن يغدر بنفسه.. فعقلي لم يكن ليستوعب حقيقتي التي لا يمكن أن تمر بذهن أكثر العقول انفتاحا وخيالا.. مما جعلني أظن أن (ناصر) صديقي.. وليس جزءا مني.. أو.. أنا جزء منه لو أردنا الدقة.



دعكم من نقاط صغيرة أخرى لم أنتبه لها سوى الآن.. كسبب تجنبي المستمر للمصاعد.. فقد ارتبطَت في عقلي الباطن بوحشتي وخوفي داخل الصندوق الذي كنت حبيسا فيه على هيئة ضوء أسود.. أما النبتة وشجارنا مع تاجر المخدرات وارتكابنا لجريمة قتل.. فالواقع أن (ناصر) الحقيقي كان وحده هناك.. لكن ارتباك الأحداث في ذهني.. جعلني أتصور أننا شخصان.. وأنني كنت متواجدا معه حينها.. الآن أفهم لماذا كانت شقة (ناصر) تبدو مألوفة حين زرتها بحثا عن المال.. لأنها شقتي أيضا كوني نسخة منه وأحمل ذاكرته.. حتى الشقة التي استأجرتها مؤقتا.. وشقة (غادة).. شعرت أنني رأيت كل هذا من قبل.. مستغربا من حالة (ديجافو) المستمرة التي ظللت أعانيها.

هناك إذا أكثر من نسخة من (ناصر).. فأنا نسخة منه.. ومن زارني في المستشفى نسخة جديدة ستأخذ مكاني وتكرر كل ما فعلته.. وكل نسخة تحمل نفس ذكريات النسخة السابقة.. وتتصرف بصورة مشابهة لها.. بل وتعاني من حالة (ديجافو) دائمة.. ولا أعرف في واقع الأمر أي نسخة أنا.. السادسة أو السابعة أو.. المائة!!..

أعلم أن هذا لن يجيب على كل شيء.. لأن هناك تساؤلات مهمة كثيرة ومنطقية قد تنسف نظريتي من جذورها.. فكيف تكرر كل نسخة من (ناصر) ما فعلته النسخة التي سبقتها دون أن ينتبه أحد؟!.. ألم تنتبه ابنتاي أنني قمت بزيارتهن أكثر من مرة؟!.. ماذا عن حارس العمارة الذي استأجرت منه شقتي المؤقتة؟!.. ماذا عن (غادة)؟!.. ممرضي المستشفى؟!.. جميعهم تصرفوا بصورة طبيعية للغاية ولم يشعروا بتكرار زيارات تلك النسخ أو بأي شيء غير عادي.. حسنا.. هناك إجابة واحدة لهذا السؤال المنطقي.. وهي أن الزمن يعيد نفسه ويتكرر.. حرفيا وليس مجازا.. ليس لكل الناس بالطبع.. بل لنُسَخ (ناصر) فقط!!!.

هذا هو التفسير الوحيد مهما بدا غريبا ومثيرا للدهشة والسخرية.. أعتقد -لست متأكدا- أن سبب تكرار الزمن بهذه الصورة لأن (ناصر) الحقيقي عبث بطاقة كونية غير مفهومة حين اكتشف الضوء الأسود وحاول عزله عن جسده.. وهذا العبث لا يمكن أن يمر مرور الكرام.. فتسبب بهذا الخلل الزمني في حياته هو فقط.. وحياة النسخ التي خرجت بعده.

لقد عشت شهورا من عام 2018 ابتداء من ركوبي لسيارة الأجرة ذاهبا إلى ابنتيّ.. إلى أن انتهى بي الأمر على هذا السرير في المستشفى.. لتأتي نسخة أخرى مني ويتكرر عليها الزمن لتعيش نفس الشهور من عام 2018 أيضا.. أي أنكم جميعا تعيشون التسلسل الزمني المعتاد الذي تعرفونه.. ماض وحاضر ومستقبل.. أما نُسَخ (ناصر) -بما فيهم أنا- فتتكرر عليها نفس الفترة الزمنية وتعيشها مرة تلو الأخرى.. ولا ترى أبدا ما بعد عام 2018!!.

لكن.. إذا كان الزمن يتكرر على كل نسخة من نسخ (ناصر) كما استنتجت.. فكيف تواجدت نسختان وتقابلتا في نفس الزمان والمكان كما حدث للتو حين زارني (أنا) الآخر؟!.. هذا ما حدث أيضا حين زرت نسخة (ناصر) السابقة في بداية قصتي.. إنها نقطة جوهرية لن أعرف الإجابة عليها أبدا للأسف.. لكن عموما.. مؤكد أن النسخة السابقة تفنى دوما.. لتحل محلها النسخة الجديدة وتكرر الأحداث.. إنه تفسير مرهق ذهنيا.. أعترف بذلك!!.

كما يجب أن أنوه هنا أن الشخص الوحيد الذي كان سيكتشف أن هناك شيئا ليس على ما يرام هو الحارس

الذي سألته عن مكان شقة (ناصر).. فمن غير المعقول أنه لم يتعرفني.. لكني أفهم السبب الآن.. لأنه حارس جديد وقد حصل على وظيفته منذ أيام قليلة كما قال لي بنفسه.. فلو كان هو نفسه الحارس القديم.. لاستغرب وكشف لي عن هويتي مباشرة.. ولأخبرني أنني في واقع الأمر أسأله عن شقتي.. ولا أعرف حينها كيف ستؤول إليه الأمور.. لكن يبدو أن قدر من يتجسد من الضوء الأسود أن يظل جاهلا بذلك إلى أن يقترب من الموت ويدنو أجله.. حينها فقط سيدرك حقيقته!!.. كما يحدث معي الآن.

كان من الممكن أيضا أن أكتشف حقيقتي حين سألت الممرضة عن مكان سرير (ناصر) في العناية المركزة وطلبت منها السماح لي برؤيته.. لكن أعتقد أنني أخبرتها باسمه الأول فقط.. وإلا كنت سأنتبه حينها أننا نحمل نفس اسم العائلة.. مما كان سيثير شكوكي بالطبع.. لكن.. يبدو أن اسم الأب أو العائلة لم يرد في ذهني أبدا.. وهذا أمر طبيعي.. هناك معلومات بديهية تفترض دوما أنها في عقلك ولا تفتش عنها.. تماما كالإثبات الشخصي الذي لا تخرجه من محفظتك ولا تنظر إليه إلا وقت الحاجة.

إن الزمن يعيد نفسه في محيطي فقط.. ومحيط كل نسخ (ناصر).. ومن دون أن يشعر أحد من الناس.. حتى أنا لم أشعر بذلك إلا بعد أن انتهى بي المطاف في المستشفى.. ورأيت نسخة (ناصر) الجديدة التي زارتني للتو.. فهي تظن أنها خرجت من السجن للتو أيضا.. وعلى الأرجح زارت ابنتيّ قبل أن تأتي لرؤيتي.. وستكرر نفس تسلسل الأحداث التي عشتها.. ولو قدر لهذه النسخة الجديدة أن تكتب مذكراتها.. فستكون شبيهة حرفيا بمذكراتي.. سوى بعض الاختلافات البسيطة ربما.

كما قلت.. التفسير معقد ومربك جدا.. لكن فهمه سيكون بسيطا حين نتذكر الأفلام الأجنبية العديدة التي تناقش فكرة تكرار الزمن.. يطلقون عليها مصطلح (الفجوة الزمنية)* على ما أظن.. شخص واحد فقط يعيش نفس اليوم كل يوم!!.. بنفس الأحداث والتفاصيل.. فلا يشعر أحد بهذا التكرار سواه.. إذ يعيش جميع البشر حوله بصورة طبيعية للغاية.. وهو يصرخ بهم محاولا إقناعهم أن كل ما يقولونه ويفعلونه مكرر بالنسبة له.. ويثبت لهم ذلك بترديد كلامهم قبل قوله!!.. لكنهم ينظرون إليه باستغراب شديد من دون أن يفهموا كيف تمكن من معرفة المستقبل وتخمين كلامهم.

---

* (Time Loop) باللغة الإنجليزية.

الاختلاف هنا أن في الأفلام التي تعالج تلك الفكرة.. نجد أن الفجوة الزمنية هذه لا تتجاوز يوما واحدا فقط.. أما في قصتي.. فالفجوة الزمنية تتجاوز حوالي 5 شهور!!.. تتكرر فيها الأحداث وتتكرر من دون توقف.. والاختلاف الآخر أن نسخة (ناصر) التي تتجسد من الضوء الأسود وتتحول إلى كيان مادي لا تنتبه لهذا التكرار الزمني إلا في نهاية حياتها.

نعم.. هذا يعني أنني سأموت قريبا.. سيزورني (أنا) الآخر بعد أيام قليلة.. ويقوم بتصويري من خلال كاميرا الفيديو في هاتفه وهو يسألني عن مكان المال.. لألفظ أنفاسي الأخيرة أمامه وأموت.. فيرى الضوء الأسود يدخل جسدي.. ويعيش نفس الأحداث التي عشتها وسردتها لكم!!.

إنني أتساءل.. طالما الضوء الأسود سيتجسد ليحل مكاني في هذا العالم.. لماذا لم أمت مباشرة حين عزلته في الصندوق؟!.. أعتقد لأن التجسد يحتاج إلى فترة طويلة نسبيا.. قبل أن يكتمل وتخرج نسخة (ناصر) الجديدة إلى الحياة.. حينها ستسعى النسخة التي سبقتها إلى الانتحار لمنح الفرصة للنسخة الجديدة.. تماما كما حدث معي.. وقد يكون هذا هو السبب وراء سوء حالتي النفسية واكتئابي الشديد ويأسي

من الحياة حين ذهبت لألقي بنفسي أمام السيارات المسرعة.. يبدو أنه قانون كوني أن تفسح كل نسخة المجال للنسخة الأخرى كي تكرر الدورة الزمنية بنفس أحداثها وتاريخها!!.

ترى.. كم نسخة ظهرت -وستظهر- من (ناصر) الحقيقي لتعيد نفس الأحداث؟!.. لا أعلم.. إنها معضلة معقدة ومربكة جدا تثير الصداع.. وهي شبيهة بمعضلة (سفينة ثيسيوس) الشهيرة حيث لا حل لها* !!!.. أو.. لنقل أنني مثل الدودة التي لو قطعتها أكثر من 200 قطعة.. كل قطعة منها ستتحول إلى دودة جديدة وكائن حي مستقلا بذاته!!**.. مؤلم أن تكون كل نسخة تظهر من (ناصر) شبيهة بالكومبارس الذي يحاول -بلا توقف- أن يغير أحداث الفيلم.. لكن دون جدوى.

تبقى الأسئلة التي ترتكز عليها القصة بأكملها.. فكيف بدأت قصة (ناصر) الأصلي إذا؟!.. كيف اكتشف الضوء الأسود؟!..

---

* معضلة (سفينة ثيسيوس) (Ship of Theseus) هي عبارة عن نقاش فكري يطرح تساؤلات عن الهوية البشرية.. وهل الكائن الذي استبدل شيئا من مكوناته يفترض أن يبقى نفس الكائن أم لا؟!.. كمن قام بعملية زراعة قلب أو كلية.. أو أي أعضاء بشرية أخرى.. وقد تحدث عن هذه المعضلة الفيلسوف الإغريقي (بلوترخس) (Plutarch).. حيث طرح هذا التساؤل الفلسفي الشهير: هل السفينة المستهلكة التي يتم استبدال كل جزء خشبي تالف منها تظل هي السفينة نفسها أم لا؟!.

**يتحدث هنا عن دودة (البلانيريان) (Planarian).

لا أعرف الإجابة.. لكني أعرف على الأقل أنه دخل السجن وقضى فيه 8 سنوات.. لأن حياته في السجن موجودة في ذاكرتي.. لكنه لم يكن قد خرج منه للتو كما قلت في بداية قصتي.. ربما خرج منذ سنوات وعاش واكتشف الضوء الأسود ومات فيما بعد.. متى مات بالضبط؟!.. لا أظن أن كلمة (متى) تعني أي شيء.. فلا توجد للزمن أي قيمة هنا كونه يتكرر بهذه الطريقة الغريبة على نسخ متتالية لشخص واحد؟!.

يبدو أن الزمن لغز حقيقي ولا يسير في وتيرة واحدة كما يظن عامة الناس.. بل هو نسبي يختلف من مكان لآخر كما قال (آينشتين).. وليته ذكر أن الزمن لغز كوني أيضا.. إذ لا يمكنك أن تراه.. أو تسمعه.. أو تقيسه.. فحتى الساعات لا تقيس الوقت.. لأنك لا تعرف مدى صحة الساعة.. إلا من خلال ساعة أخرى.. وأخرى!!.

نظريتي مضحكة؟!.. ما أقوله هراء؟!.. كلام مجانين؟!.. تفسير مبالغ به؟!.. المعذرة.. فكلامي هو التفسير الوحيد الذي يربط خيوط قصتي كلها ببعضها.. والجواب المنطقي الوحيد الذي يجعلني أرى (أنا) آخر يزورني ويقف أمامي مرتديا نفس الثياب ومرددا نفس الكلام الذي قلته حرفيا حين زرت من

ظننت أنه (ناصر) صديقي!!.. يبدو لي أن (ناصر) ونُسخَه التي ستأتي واحدة تلو الأخرى ستموت من فرط الخلود!!.. عبارة متناقضة غريبة.. وكل نسخة مثل الخنزير البري الذي يولد من دون أن يعلم أنه سيموت بطريقة بشعة*.

لقد كنت أتساءل ماذا سيحدث لو عزلنا الضوء الأسود عن الكائن الحي القريب من الموت.. والجواب أتى واضحا الآن.. الضوء الأسود لا يمنع الموت كما كنت أظن.. بل يتجسد لنسخة جديدة من نفس الشخص.. على أن تتجه النسخة القديمة منه للفناء.. متى سيتوقف ذلك التكرار وتنتهي هذه الفجوة الزمنية؟!.. لا أعرف.

ولو كانت هناك ذرة شك في كلامي.. فقد تلاشت تماما بعد بضعة أيام.. حين رأيت (أنا) الآخر يزورني للمرة الثانية ويلتقط لي تسجيلا مرئيا بكاميرا هاتفه وهو يحاول التحدث إلي.. فأحاول أن أحذره.. أحاول أن أخبره أنني لست من يظن.. وأنه نسخة طبق الأصل مني.. لكني أعجز عن ذلك

---

* حقيقة.. فالخنزير البري المعروف باسم (Babirusa) معرض دوما للموت بطريقة قاسية.. إذ يعاني من نابه الذي يستمر في النمو من دون توقف.. إلى أن يخترق فكه وصولا إلى جمجمته.. فيخترقها أيضا ويقتله ببطء شديد خلال أسابيع.. وأحيانا شهور.. طبعا لا يحدث هذا لو كان الخنزير البري مستأنسا أو موجودا في حظيرة أو حديقة للحيوان.. إذ يتم قص نابه بين الحين والآخر حفاظا على حياته.

بسبب إصاباتي.. لأصرخ بعد أن فقدت الأمل.. ثم أنتفض.. ويهتز جسدي.. في حين أرى (أنا) الآخر ينظر إلي بذعر وهو يرى الضوء الأسود يدخل جسدي.. لتتكرر القصة بنفس الأحداث تقريبا من جديد.

ترى.. هل هناك بشر آخرون في الأزمان القديمة -أو الحديثة- كشفوا سر الضوء الأسود واحتفظوا بسرية الأمر كما فعل (ناصر)؟؟!.. هل ما زالت تظهر منهم نُسَخ تلو الأخرى لتمر بنفس الأحداث ويتكرر عليهم الزمن إلى يومنا هذا؟!.

من يدري؟!.. ربما كان أحد القدماء قريب من اكتشاف الضوء الأسود بالفعل.. مما جعله يلتقط صورا للموتى محتفظا بسرية دوافه.. ليظن الناس وقتها أنه يفعل ذلك من أجل الحفاظ على ذكرى أحبائه.. فانتشرت فكرة تصوير الموتى من دون أن تدرك البشرية الدافع الحقيقي وراءها*..

---

* تصوير الموتى عادة قديمة تعود إلى عام 1839 ميلادية.. واستمرت لفترة من الزمن في القرن التاسع عشر.. حيث اشتهرت في أوروبا .. حين كان الناس يقومون بتصوير الموتى من أقاربهم وأصدقائهم بعد وفاتهم من أجل الذكرى.. فكان المصور يأتي للمنزل ويحاول أن يأخذ صورا للميت بعد أن يقوم ذويه بإلباسه ثيابه وفتح عينيه.. فيبدو بالصورة وكأنه حي!!.. وقد ترك العصر الفكتوري -نسبة للملكة (فيكتوريا)- مجموعة ضخمة من الصور للموتى تظهر الطريقة المخيفة التي كانت تتبع لإحياء ذكراهم.. إذ كانت هذه الطريقة أرخص وأسرع بكثير من استئجار فنان لرسم لوحة زيتية للشخص المتوفى كما كان يفعل الناس قبل اختراع التصوير الفوتوغرافي.

يبدو لي أن أحدا لم يفهم هذا العالم كما فهمه الأقدمون.. لقد كان لديهم كل الوقت للتأمل والتفكير.. لهذا ابتكروا (الخيمياء)* كمحاولة منهم لفهم الحياة.. لست متأكدا من كلامي.. لكن في لحظات الاحتضار.. أفكار كثيرة تمر في ذهنك.

وبعد أن ارتحت نفسيا لهذا الاستنتاج الذي يفسر الأحداث الغريبة التي مررت بها.. شعرت بسكون تام.. ورغبة شديدة بالموت.. لكن الرغبة هذه المرة لم تكن نتاج يأس.. بل رضا!!.. نعم.. رضا غريب لم أفهمه.. أعتقد أن دورتي الزمنية انتهت بعد أن ظهرت فيها نسخة جديدة من (ناصر).. إنها اللحظة التي يفترض أن أموت فيها.. أشعر بذلك بالفعل.. ولا أظن أنني قادر على تغيير هذا التسلسل الزمني المتكرر.

---

* الخيمياء علم قديم جدا ظهر منذ حوالي 2500 عام في الإمبراطورية الفارسية.. لينتشر بعدها في كل أنحاء العالم.. وترتبط الخيمياء بمجموعة من العلوم.. كالفيزياء والكيمياء والفلك والطب وعلم الرموز وعلم المعادن والفلسفة.. كما كانت ترتبط أيضا بالخرافة والسحر.. وتحاول منحهما صبغة علمية.. ومن أشهر أهداف علم الخيمياء -إن جاز إطلاق اسم علم عليه- تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب.. وإطالة الحياة إلى درجة قد تصل للخلود.. والواقع أننا ندين لـ(الخيمياء) بالكثير.. فقد توصل الخيميائيون في الأزمان القديمة إلى معرفة عدد كبير من العناصر الكيميائية التي نعرفها اليوم.. بعد أن كان الاعتقاد السائد قبلها أن العناصر الأساسية 4 فقط (الهواء - الماء - الأرض - النار).. ولو جردنا علم الخيمياء من خزعبلاته وخرافاته.. فسيتبقى لدينا علم الكيمياء الذي نعرفه في زماننا الحالي.. أي أن الخيمياء يعتبر الأب الشرعي لعلم الكيمياء.

الضجيج هائل حولي.. فالممرضات.. والأطباء.. يحاولون ويبذلون كل جهودهم لإنقاذي.. لكنهم لن ينجحوا.. أسمعهم يتحدثون عن الحادث المروري الذي جاء بي إلى هنا.. في حين يقول أحدهم أنه لم يكن حادثا مروريا.. بل محاولة انتحار كما سمع من إدارة المستشفى.. وأنني تاجر مخدرات سابق وخريج سجون.. طبعا.. لن يعرفوا أبدا ما مررت به.. إنهم لا يرون منك سوى آخرك.. ولا يعرفون كم استنزف مشوار حياتك من طاقتك وجهدك!!!.

ورغم كل هذا.. أشعر بشيء من السعادة غير المفهومة.. وبالقوة النفسية.. وأنني كالجدار.. غير قابل للصدمات.. ولو طلب أحدهم مني أن أضرب رأسي بالحائط.. لتهشم الحائط نفسه!!.. إنني جامد.. مكتفي.. أحب نفسي كثيرا.. وأتمنى أن أنظر إلى المرآة لأحتضن نفسي!!.

تدور تلك الخواطر المجنونة في عقلي وأدرك أنني أعيش في عالم ذاتي متكرر لا يعرفه البشر.. وأننا لا ننجو من قسوة الحياة إلا حين نكون في فراشنا.. خاصة فراش الموت!!.. سأموت وسيموت السر معي.. وستموت بعدي النسخة

القادمة.. والتي تليها.. إلخ.. من دون أن يفهم أحد في هذا العالم ما يدور في فلك شخص بسيط يدعى (ناصر).. والذي يعيش واقعا مختلفا.. وفي فجوة زمنية غامضة تتكرر فيها الأحداث.. وأن حياته بأكملها مستوحاة من قصة موت طويلة.. طويلة جدا!!.



الخاتمة

عزيزي القارىء.. أعلم أن القصة معقدة إلى درجة كبيرة وتترك غصة في حلقك.. وربما سيحتاج البعض لقراءتها مرة أخرى ليتم استيعابها بصورة أفضل.. والأمر ليس بيدي.. فهذا ما أظن أنه قد حدث.. يجب أن أذكر أولا أن من كتب القصة ليس (ناصر) بالطبع.. فقد كان مصابا بالمستشفى وفي حالة خطرة جدا عجز جميع الأطباء عن إنقاذه منها أو حتى فهمها للأسف.. ليموت بعد أسابيع من تعرضه لحادث السير الذي يبدو أنه محاولة انتحار كما أشيع.

وقد يتساءل البعض عن هويتي.. في الواقع أنني أحد الأطباء المتابعين لحالته.. وقد فكرت بكتابة قصته ونشرها للناس.. لأنني وجدتها غريبة.. غريبة جدا.. كما هو مذكور على الغلاف.. وأعتقد أنكم تتفقون معي في ذلك بغض النظر إن كانت قد أعجبتكم أم لا.

كيف عرفت بتفاصيل القصة بما أن (ناصر) كان في حالة سيئة جدا وغير قادر على التحدث؟!.. سأجيب وأقول أن المرحوم

ظل يهذي بكلام غريب ويردده باستمرار أثناء وجوده في المستشفى.. حتى جعل الممرضات يستبدلن اسمه الحقيقي بلقب (المعقّد).. وقد أغضبني هذا كثيرا.. ووجدته استهزاء بشخص يصارع الموت.. فكنت صارما حين أصدرت أوامري لهن بإظهار الاحترام لحالته الخطرة.. لكنهن لم يتوقفن رغم ذلك.. إذ كنّ يتهامسن ويتغامزن طوال الوقت ويصفنه بذات اللقب.. (المعقّد)!!.

لقد سمعت الكثير من الهذيان من مرضى سابقين تعاملت معهم في المستشفى.. لكن الكلام ظل دوما عاديا للغاية لا يتجاوز عبارات مقتضبة من ذكرياتهم.. أو مواقف معينة من حياتهم لا تلفت الانتباه.. أما هذا المريض فكان مختلفا بالفعل!!.. لم يكن كلامه منظما دقيقا كما سردته لكم بكل تأكيد.. لكني -وبسبب متابعتي المستمرة لحالته- انتابني فضول شديد للغاية حين سمعته أكثر من مرة يهذي ويحاول أن يتحدث.. فأقترب منه محاولا أن أفهم.. لألتقط بصعوبة كلمات غريبة جدا.. مثل (ضوء أسود).. و(فجوة زمنية).. و(جبلة خارجية) و(نسخة بشرية).. إلخ!!.. مع أحداث

وحوارات وذكريات كثيرة من حياته الشخصية.

لم يكن من الطبيعي أبدا أن يستخدم شخص بتلك الخلفية الإجرامية مصطلحات كهذه.. دعكم من أنه لا يوجد شيء في العالم اسمه (ضوء أسود).. فبذلت كل جهدي للتحدث إليه.. لكنه لم يستجب أبدا.. وهذا متوقع بسبب سوء حالته.. مما جعلني أتجه لسؤال إدارة المستشفى عن خلفية قصة هذا الرجل كاملة.. وأكتشف منهم أنه ذو سوابق وعلاقته بأقاربه مقطوعة.. وقد قضى عقوبته كاملة في السجن.. قبل أن يخرج ويتعرض لذلك الحادث المروري.. والمرجح أن يكون انتحارا.

لم تكن تلك الإجابات تكفيني.. فهي لا تفسر المصطلحات الغريبة التي يرددها.. لذا واتتني فكرة قد تطفئ نار الفضول الذي سيطر علي.. أن أتابع حالة الرجل وأحاول أن أربط كلماته ببعضها علني أخرج بقصة واضحة تكشف أسراره.. فكنت أترك هاتفي الذكي تحت وسادته ليسجل كل ما يقوله.. وبعد عودتي إلى البيت.. أقضي ساعات طويلة من كل يوم بتفريغ ما قاله على الورق.. محاولا خلق قصة من كلامه المخلوط بهمهمات مربكة.

لم يكن الأمر بصعوبة ما حدث مع (جان بوبيي)*.. لكنه لم يكن سهلا أيضا.. فنحن نتحدث عن خلق قصة كاملة بكل تفاصيلها من كلمات مبعثرة -بعضها غير واضح- يرددها مريض بين الحياة والموت.. وربما ساعدني على ذلك عقلي الذي حررته تماما من كل القيود والمحظورات.. فخرجت القصة التي بين أيديكم.. ولا أخفي عليكم حزني بسبب معاناة (ناصر) في حياته.. وإن كنت أرى أن معاناتنا غالبا لا تكون بسبب قسوة الحياة.. بل لسوء اختياراتنا!!.

لقد سألت الممرضات إن كان أحد قد زاره خارج فترات نوبتي.. لتخبرني إحداهن أن شخصا واحدا زاره مرتين بالفعل في غيابي للأسف.. ورغم أنني توجهت لكاميرات المراقبة في المستشفى.. إلا

* (جان دومينيك بوبيي) (Jean-Dominique Bauby) صحفي فرنسي مصاب بشلل تام جعله عاجزا عن الحركة أو التحدث.. ورغم ذلك.. قام بتأليف كتاب كامل من حوالي 150 صفحة يتحدث فيه عن معاناته مع المرض.. من خلال تحريك جفن عينه اليسرى فقط!!!.. وقد ساعدته على ذلك محررة كانت تسرد عليه الأحرف الأبجدية كلها في كل مرة بالترتيب إلى أن تصل إلى الحرف الذي يؤشر عليه بجفنه.. فكانت تقضي معه 6 ساعات كل يوم لكتابة نصف صفحة فقط!!.. إلى أن انتهت من طباعة الكتاب ونشره عام 1997.. والكتاب عبارة عن رواية ترجمت للغة العربية.. وهي بعنوان (بذلة الغوص والفراشة) (The Diving Bell and the Butterfly).. وهي متوفرة في المكتبات.

أنها للأسف لم تظهر ملامح هذا الزائر بوضوح.. دعكم من أنني لم أعرف أبدا ملامح (ناصر) الحقيقية بسبب إصاباته التي طالت وجهه وفكه الذي تهشم.. ولا تنسوا أنه جاء إلى المستشفى من دون هاتفه.. أو محفظته التي قد تحوي إثباته الشخصي على الأقل.. مما تطلب التواصل مع الشرطة لمعرفة هويته.

وقد تمكنت بعد وفاته بفترة من التوصل إلى زوجته -وتدعى (غادة) بالفعل- لأسألها عن ما سمعته على لسان زوجها.. وإن كانت تعرف ما يقصده بتلك المصطلحات.. لكنها أنكرت كل شيء.. وأخبرتني أنها قطعت علاقتها به قبل الحادث الذي تعرض له بفترة بسيطة بسبب بعض الخلافات.. وفضلت أن تكون بعيدة عنه حتى وهو يصارع الموت في المستشفى.. وهذا سبب عدم زيارتها له.

ولا أعرف لماذا لمحت بعض التوتر حين ذكرت لها مصطلح (الضوء الأسود)!!.. فهل القصة حقيقية؟!.. أم أنني واسع الخيال فحسب وترجمت هذيانه بطريقة خاطئة؟!.. من العسير التيقن الآن بعد وفاته للأسف.

كما يجب أن أنوه هنا أن كل التفسيرات والتحليلات في القصة كانت نتاج تفكيري المستمر.. فلا أظن أن رجلا لم يكمل تعليمه -وبهذه الخلفية الإجرامية- يستطيع أن يحلل ما مر به كما فعلت أنا.. مهما قرأ في سنوات السجن كما كان يهذي.. لذا أظن أنه مات وهو لم يستوعب بعد سبب وجود نسخة أخرى منه تزوره في المستشفى.

إنها قصة من مكان مجهول تنتمي إليه كل ألغاز العالم.. أو لنقل غموض العالم.. فالغموض أكثر غرابة من اللغز من وجهة نظري.. لأنك في اللغز لا تملك جميع المعلومات.. أما في الغموض فأنت قد تملك المعلومات لكنك لا تعرف كيف تتعامل معها.. عموما.. نحن نعجز عن فهم الطبيعة نفسها.. فكيف سنفهم عالم ما وراء الطبيعة الذي تدور فيه أحداث هذه القصة؟!.

إنني أجلس حاليا في مكتبي وأستذكر أشياء كثيرة.. أستذكر حقيقة فكرة تصوير الموتى في الماضي البعيد.. ربما اكتشف القدماء وجود تلك الطاقة التي أسماها (ناصر) بـ(الضوء

الأسود) بالفعل.. بل وربما أسطورة تناسخ الأرواح ظهرت بسببه!!.. من يدري؟!.. أعرف أن كل ما أقوله يبدو ضربا من الجنون.. خاصة وأنني طبيب يفترض ألا أكون واسع الخيال بهذه الصورة ويجب أن أتعامل مع الحقائق فقط.

لكني لست طبيبا عاديا.. فقد عشت بدوري الكثير من القصص الغريبة التي سردتها ونشرتها منذ سنوات طويلة.. في فترات مراهقتي تحديدا.. حيث قرأها الكثيرون آنذاك.. وكانت تحمل اسم (الأبعاد المجهولة)*.. ثم توقفت عن الكتابة رغم كل ما رأيته وما أراه حتى الآن من غرائب.. بعد أن سرقتني مهنة الطب من كل شيء في السنوات الأخيرة.. سوى من جدتي -أطال الله في عمرها- والتي ما زلت أعيش معها وأمنحها كل اهتمامي رغم تدهور صحتها في الآونة الأخيرة بفعل عامل السن.. ومن قرأ مذكراتي في السابق يعرف تلك الأمور عني.

وربما ما رأيته في حياتي من غرائب.. ألهمني كثيرا كي أخرج

---

* راجع إصدار المؤلف (الأبعاد المجهولة) بأجزائه الثلاثة.. علما بأن الأجزاء غير مرتبطة ببعضها.

بكل الاستنتاجات التي ساعدتني على صوغ هذه القصة لكم.. وإن كنت غير متأكد أنها حدثت بالفعل.. كوني اعتمدت بالكامل على الكلمات التي خرجت من شخص مجهول تعرض لإصابات مروعة جعلته طريح الفراش يصارع الموت لأسابيع قبل أن يموت فعليا.. شخص أطلقت عليه الممرضات ذلك اللقب الغريب.. (المعقّد)!!.

د. خالد سليمان الـ...
مستشفى (مبارك)
(الكويت)



إصدارات المؤلف:

1) وراء الباب المغلق (2000)
2) خلف أسوار العلم (2002)
3) الأبعاد المجهولة (2004)
4) الأبعاد المجهولة 2 (2006)
5) في الجانب المظلم (2008)
6) حكايات من العالم الآخر (2008)
7) 17 (2008)
8) زيارات ليلية (2009)
9) رسائل الخوف (2010)
10) بعد منتصف الليل (2012)
11) منطقة الغموض (2012)
12) حالات نادرة (2012)
13) حالات نادرة 2 (2013)
14) حالات نادرة 3 (2014)
15) الأبعاد المجهولة 3 (2014)
16) متحف الأرواح (2015)
17) حالات نادرة 4 (2016)
18) قصص.. لا يسمحون لي بنشرها (2017)
19) مخطوطات مدفونة (2018)
20) ملاذ (2018)
21) المعـقَّـد (2018)

للتواصل مع المؤلف

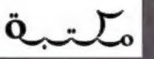
Email: abdwahab@novapluskw.com
kuwaiti27@hotmail.com

Twitter: @aalsayed1973

Instagram: aalsayed1973

Snapchat: alrifaee

Youtube: www.youtube.com/aalsayed1973



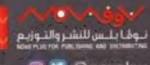


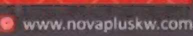
أنت لا أحد.. حين تكون كالجميع!!.. وأولى خطوات الاختلاف أن تحتفظ بأسرارك لنفسك.. وتُبقي المسافة بعيدة عن كل من هم حولك.. وهذا تحديدا ما يجعلني مختلفا عن بقية الناس.. فأنا كتوم جدا.. لعلمي أن لحظات البوح خطيرة وغالبا ما تفقد قيمتك بعدها.. لكنني قررت -رغم ذلك- أن أتكلم.. فالكتمان يجعلك عصبيا مع أشخاص لا ذنب لهم.

الأحداث بطيئة وتقليدية في البداية.. وقد تكون غير منطقية في بعض فتراتها.. وتجعلك تطرح التخمينات دون توقف.. إلا أنها ستأخذك إلى نهاية تخالف كل توقعاتك!!.. خاصة وأن من رسَم أجواء القصة رجل غريب الأطوار يختلف عن أي رجل عرفته في حياتك.. رجل معقّد!!.

 @aalsayed1973  aalsayed1973 alrifaee


9 789996 694721





www.novapluskw.com @novakw